حكايات
جار الود

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : حكايات جار الود
التأليف : ريم السيد المتولي
موضوع الكتاب : رواية
عدد الصفحات : 200 صفحة
عدد الملازم : 12.5 ملزمة
مقاس الكتاب : 20* 14
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :2024/ 3204
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6697 - 935

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

رواية

حكايات جار الود

ريم السيد المتولي

إهداء (1)

إلى كل مُحب يتمنى أن تسير الحياة به مع شريك حياته

في حُب واستقرار.

إهداء (2)

إلى جروب (قصة كل ليلة) وكل من دعمني وشجعني حتى تخرج حكايات جار الود على هذا النحو، أهديكم الحكاية الأولى التي شاركتموني في كتابتها وقضينا معًا ليال لطيفة نتجمع حولها وننتظرها بشغف.

الحكاية الأولى

إن قوة الأسرة، مثل قوة الجيش، تكمن في ولائها لبعضها البعض.

– ماريو بوزو

(عزيزة)

قرأت ذات مرة أن الزواج يعني السكن والأمان والمشاورة في أمور الحياة كبيرة كانت أم صغيرة، أن الخلافات تُقوي العلاقة وتجعلها أكثر تماسكًا لكنِ حين تزوجت وجدت الحياة مختلفة كل الاختلاف.

بعد زواجي اكتشفت الكثير من العيوب التي تحيط بي من قبل زوجي وأصبحنا نبتعد في كل يوم عن اليوم الذي يسبقه أميال لكن مسألة حملي التي جاءت مبُكرة جعلتني أحاول تخطي كل شيء على أمل أن يتغير كل شيء بعد الولادة لكن! لكن ماحدث أن بعد ولادتي ومع تفاقم الأمور وزيادة الضغوط أُصبت بكآبة شديدة ما عُدت أقوى على تحملها.

وضعت طفلي الأول بعملية قيصرية لم تكن بالسهلة أبدا كما لم تقضِ أمي معي سوى ليلتي الأولى ثم عادت لإخوتي حيث بيتنا البعيد عن منطقتي التي أقطن بها مع زوجي، ولم أكمل أيامًا قليلة حتى طُلب مني النهوض لبيت يسكنه زوج لا يهمه سوى أن يرى كل شيء على مايرام أن يكون في المقام الأول وحتى قبل الرضيع الذي لا يفقه عن الحياة سوى الرضاعة وتبديل ملابسه والنوم، يبكي ابني دون أن أعرف السبب وأنا التي بدلت

ثيابه وأرضعته مايشبعه فما يُبكيه؟ كنت أقضي الليل باكية وأنا أتساءل لمّ لا ينام ويتركني أهنأ بساعة من النوم الهادئ؟

لكن حتى ما أن تتحقق أمنيتي بنومه إلا وأجد زوجي فوق رأسي يطلب الشاي ثم تجهيز ملابسه ثم تحضير حلوى يشتهيها، ثم أجد الكثير من الأعمال تنتظرني فأحاول إنهائها سريعًا بجسد واهن يكاد يُغشى عليّ، ولا أكاد أنتهي إلا وأجد صوت ابني يرتفع من جديد لتبدأ الدائرة مرة أُخرى فلا أنا أنام ولا الأعمال تنتهي، أجدني أبكي دون سبب فيتهمني زوجي بالنكد وهو لا يعرف كل ما يدور في عقلي وقلبي من مسؤوليات بدأت تتراكم وتحتاج لمن يُساعد لفترة ولو قليلة، ومهما تحدثت وشكوت له أجده غاضبًا وسرعان مايتهمني بانعدام المسؤولية قائلًا جملته المعهودة:

– مثلك مثل الكل النساء، جميعهن ينجبن ويقمن بواجباتهن دون شكوى ودون حديث، كفاكِ دلالًا.

فأنسحب من الحديث وأسكت عن الكلام وأنعزل عن مشاركته أي حديث فيبتعد كما ابتعدت وينعزل كما انعزلت وتزداد الأمور سوءًا ويزداد شعوري بالاكتئاب والحزن.

لم تكن والدة زوجي تختلف عن زوجي كثيرًا فمنذ زواجنا لم أجدها سوى ساخطة على كل فعلة صغيرة كانت أم كبيرة، تتدخل فيما لا يعنيها حتى أدق تفاصيلي، وحين أحدث زوجي لا أجد منه سوى الغضب والنصرة لكل ماتفعله والدته خاتمًا الحديث بجملة اعتدت سماعها:

- أمي تفعل ما يحلو لها وعليكِ السمع والطاعة.

فأسكت أنا وتفعل مايحلو لها فأبتسم وأسكت وبداخلي يشتعل فأنال رضاه وحين أبقى وحيدة لا أكف عن البكاء وأنا أتذكر ما حدث منها ومنه ومن كل قريب لم يعد موجود في حياتي، لكن لم يبدأ الأمر فجأة ففي أثناء الخطوبة كان يحدث هذا وكنت أتخطى لأني أريد الزواج فحسب للابتعاد عن بيت أهلي لطريقة أبي الصعبة في تربيتي.

ذات يوم جاءت حماتي قبل حضور زوجي لم يكن الطعام قد نضج كما لم يكن المطبخ على مايرام دخلت وهي تتأفف تُفتش هنا وهناك عن كل تقصير في شقتي ثم مالبثت أن حملت الرضيع تزنه بين بيديها وتقرب أنفها من ملابسها وهي تهتف:

- إذًا فيمَ تقضين نهارك؟

تعجبت قولها وأنا التي لم أنم سوى ساعة واحدة همست بهدوء:

- عفوًا؟

- المطبخ غير نظيف! الطعام لم ينضج! الطفل لا يزيد وزنه! إذًا ماذا تفعلين أنتِ طوال يومك!

ثم أردفت على عجل وهي تمشي نحو الأريكة :

- آه من بنات اليوم!

ثم نظرت نحوي وهي تأمر:

- اذهبي للمطبخ لتجهزي طعام ابني فهو على وصول.

لم يكن مني إلا أن فعلت وداخلي يبكي تعبًا ووجعًا ولا أستطيع الحديث كما لا أستطيع الدفاع، لم تمر دقائق قليلة إلا وعاد حازم وهو يحمل بعض أكياس الخضار المجمدة، وحين أدخلها عندي وخرج للجلوس مع والدته سمعتها تقول:

– كنت أقوم على طلبات البيت وطلباتكم ولا أقصر أبدًا كما كنت أذهب للسوق وأنا أحمل الرضيع منكم على كتفي وكل ماأريده في يد واحدة، أما بنات اليوم فحدث ولا حرج حتى الخضراوات تُحضرها لها جاهزة نظيفة وكنت أنا أحضرها كما هي وأغسل وأنظف لأطعمكم كل طازج!

لم أسمع منه رد فتابعت وقد اغتنمت الفرصة:

– عليك بالإمساك بزمام الأمور من البداية لو تركتها هكذا لن تهتأ أبدًا في حياتك، ستعتاد الكسل وتتعلل على الدوام بالتعب والوهن ورعاية الطفل.

رفع صوته حينها قائلًا:

– عزيزة هيا حضري السفرة فأنا جائع أم أنكِ ستقضين نهارك في المطبخ دون منفعة!

حضرت السفرة ووضعت ماطبخت عليها ثم حملت الصبي ودعوت حماتي إلى الطعام فأشاحت بوجهها غاضبة وهي تتجه نحو السفرة قائلة:

– لست ضيفة فأنا في بيتي قبل أن يكون بيت ابني! لا أدري ماذا تتعلمون في المدارس مادام هذا حالكم مع اللباقة؟

كنت قد وصلت ذروتي من كظم الغيظ فما كان مني إلا أن دخلت الغرفة

ثم بدأت في إرضاع الصغير الذي بدأ في البكاء كأنه شعر بعذاب أمه وهوانها على الناس، لم تمضِ دقائق إلا وباب الشقة يرتطم بقوة ومن بعدها جاء حازم وكل الغضب على وجهه:

- كيف تعاملين أمي بهذه الطريقة؟

مسحت دموعي التي انهمرت رغمًا عني:

- لم أفعل معها شيء وهي التي منذ دخولها تتعمد إهانتي و...

ازداد وجهه حمرة وهو يقاطعني بغضب:

- كيف تتحدثين هكذا؟ ألن تكفي عن الكذب! تتهمين أمي المسكينة بما ليس فيها وهي التي جاءت من أجل المساعدة! بدلًا من البكاء وقلة ذوقك هذه نظفي مطبخك واطبخي جيدًا واهتمي بالصبي الذي لا يزيد وزنه بسبب إهمالك.

انفعلت حينها ولم يتبقَ عندي ذرة صبر واحدة:

- كفى يا حازم... الجميع يضغط عليّ.. الجميع يتهمني بالتقصير وأنا لا أنام ولا ارتاح ولا أكف عن القيام بكل شيء.. أنت ترى بنفسك لكن ما أن تتدخل أمك حتى تنقلب عليّ وتغمض عينك عن كل شيء.. لا تساعدني أبدًا حتى الكلمة لا أسمعها.. وفوق كل هذا تأتي أمك و...

- لا أريد سماع كلمة أخرى يا عزيزة.

ثم أردف وهو يتجه نحو الردهة وصوته يكاد يشق الجدران:

- جميع النساء مثلك ولم نسمع إحداهن تشكو أو تتغافل أو تعبس هكذا!

كانت هذه أكبر مشكلة في حياتنا وهي تدخل حماتي في كل شؤون حياتنا وتذكرت حديث أمي عند بداية زواجي حين قالت:

– حين تخرج أسرار البيت خارج عتبته ويتدخل كل من هي ودب في كل صغيرة وكبيرة في حياة الزوجين تُصبح الحياة صعبة جدًا وسُرعان مايحل الخراب والفراق بعد أن ينضب الحب والوصال.

ومع كل هذا ما كنت أريد سوى كلمة حانية تربت على قلبي، الكلمات تُعين واللطف يُهون والمُساعدة تدفع للمقاومة والنهوض من جديد.

ارتفع رنين الباب فسكت وهو ينظر نحوي بغضب وراح يفتح فإذا بالجار أمامه يستأذنه الدخول فما كان منه إلا أن اصطحبه متعجبًا إلى الصالون، وتحدثا في البداية عن الجو والمنطقة والعمل، ع ل كان الصوت مسموعًا لديّ حين قال الجار دون أن يدخل في صُلب الموضوع الذي سمعه منذ قليل:

– كيف حالك بعد قدوم طفل؟

قال زوجي في ضجر:

– بخير.

قال الجار وهو يضحك:

– أذكر حين ولادة ابني الأول لم نكن ننام إلا القليل جدًا، آتي من العمل فأتناوب على حمل الصبي قليلًا حتى تهنأ زوجتي بساعة أو ساعتين لتستطيع إكمال يومها، تطبخ فأساعدها في غسل الأواني أو تجهيز السفرة أو ماستطعت مساعدتها فيه، فكنت أحاول دائمًا أن أريحها ولو بالقليل لفرط تعبها، وحين

ولادة ابني الثاني كان الطفل الأول بجميع مسؤولياته معي بل وكنت أحاول حمل الصغير ولو لبعض الوقت حتى تنام، فأكثر ما كانت تحتاج إليه هو النوم في هدوء لترحم عقلها جهد التفكير ومن ثم الدخول في المتاعب والأحزان لأن فرط التفكير وقلة النوم تبعث على الكآبة مما يُؤثر عليها وعلى الرضيع وعلى أهل البيت جميعًا، والحمد لله مرت كل الفترات على خير.

سمعت زوجي وهو يُحاول أن يخفض صوته لكن لتلاصق الغرفتين كان الصوت واضحًا:

– لكن أمهاتنا وجداتنا كن يحملن المسؤولية كلها على عاتقهن دون مساعدة أحد بل كانت المرأة منهن تذهب أيضًا للأسواق وتطبخ أشهى المأكولات ولم تتعلل إحداهن بتعب أو غيره.

قال الجار في هدوء:

– الزمان غير الزمان والأجساد غير الاجساد والبيئة غير البيئة، قديمًا كان يعم الهدوء والجو النظيف والطعام الخالي من الكيماويات والتلوث فكانت المرأة قوية ذات جسد يتحمل الكثير وكان الأطفال ينامون لأغلب الوقت لشدة هدوء الدنيا ونقاء الجو وصحة مايتناولون، أما الآن فحتى تلك الأجهزة الكهربائية تُؤثر على الصغار فلا ينعمون بالهدوء والنقاء والتغذية التي نشأ عليها هذا الجيل فقد جعلت صحتهم أوهن كثيرًا من القدامى، لذا لا بأس من بعض المساعدة لتمضي الحياة هانئة.

لم يرد زوجي رُبما لم يقتنع، قال الجار:

– أتعلم حتى اليوم لازالت زوجتي تشكرني على صنيعي هذا ولم تنسَ أبدًا ما كان مني من مساعدة وإن حدث خلاف تأتي بعد أقل من دقائق تعتذر حتى لو كنت أنا المُخطئ وهي تقول: لا أنسى ما كان منك وأنا في أشد وهني.

قال زوجي:

– بارك الله لكما.

قال الجار:

– المرأة في تلك الأيام تكون في حالة مزاجية سيئة لتحول حياتها وتغيرها من فتاة تنعم بالحياة إلى زوجة وقد أصبح على عاتقها كل شيء، فلا تكن معاملتك الشديدة معها عبئًا آخر عليها، لو فقط ربت على يدها وأشعرتها بتقديرك لتعبها لهانت كل الدنيا في عينها، يمكن للرجل أن يُساعد زوجته ولو بالكلام الطيب بدلًا من هدّ العزائم.

ثم استغرق الحديث بينهما دقائق قليلة غادر بعدها الجار ورأيت زوجي وهو يدق بابي ويدخل وبنظرة لم أفهمها قال:

– بسببك جاء من لا علاقة لي به يُملي عليّ النصائح.

كانت جُملته صادمة لصدري فما توقعت ذلك أبدًا واعتقدت أن يأخذ بنصائح جارنا، أردف لما لم يجد مني سوى النظر له والدموع في عيني:

– حاولي تحمل المسؤولية كأمك وأمي وكل من سبقوكِ.

كدت أبكي ولازال يُصر على حديثه رغم كلام الجار ورغم الفروق

الشاسعة بيني وبينهم، جسدي يُؤلمني وأشعر بوهن شديد خاصة وأن ولادتي ما كانت طبيعية بل أجريت القيصرية، قال بضجر:

– أريد في الغد مكرونة بصوص الباشميل ورقاق باللحم وأن يكون للطعام رائحة نفاذة ليعرف الجار أنكِ كأمي ومن سبقوكِ ولستِ كزوجته عديمة المسؤولية.

ثم أدار ظهره بتحدٍ واضح:

– سأثبت له الرجولة على حق وأنه رجل مائع يركض خلف دلع النساء.

ذهب مُغادرًا الغرفة أردت الجلوس أرضًا للبكاء لشدة ما آلمتني قسوته وضغطه عليّ، لكن حتى تلك لم أستطع فعلها وقد ارتفع صراخ طفلي فذهبت أحمله وأمشي به ذهابًا وإيابًا كي يهدأ لأستطيع إرضاعه، كان قلبي ينزف حزنًا وأنا أتذكر كل ما كان عُدت بذاكرتي عند اللقاء الأول يوم تقدم لخطبتي عن طريق صديق والدي الذي أشاد بأخلاقه وتربيته ونسبه فما كان من والدي إلا أن رحب بقدومه.

يومها جاء مع أمه وأخيه الأكبروصديق والدي في جلسة عائلية جمعتهم بأمي وأبي، مالفت الأنظار يومها حديث والدته دون صوت منه، تتحدث عن الماضي وما عانته في تربية أولادها وتتحدث عن الحاضر عن علاقتها القوية بأولادها وأن مايعجبها هي يعجب أولادها وماترفضه لا يقربه أولادها، تعجب الجميع حديثها لكن صديق والدي فسره فيما بعد لوالدي أنه من سمات طيبة القلب والفطرة الطيبة والمهم كل الأهمية أخلاق الشاب،

قدمت يومها العصير وجلست على مقربة من والدي الذي مالبث بعدها أنا سمح لنا بالجلوس على الأريكة المقابلة لهم ليسمحوا لنا بالتعارف، فقام هو مسرعًا وجلس وسط الأريكة فما كان مني إلا أن سحبت كرسيًا من كراسي السفرة وجلست قبالته، شرب العصير الذي وضعته أمي أمامنا ثم لما انتهى منه قال:

- من صنعه؟

قلت ولازلت أنظر لموضع قدمي:

- أمي.

قال في نبرة جادة:

- أحب العصير المُركز ولا يُعجبني المُخفف، تقول أمي أن من يصنعون العصير المُخفف يعتزون بجمع المال .

ابتلعت ريقي بصعوبة ورفعت عيني لأسأله عما يقصد وعن فهمت من كلامه أنه يتهمنا بالبخل، لكنه أردف قبل أن أسأل:

- ماذا تدرسين؟

كنت أود العودة لسؤاله عما رمى إليه لكنه سريعًا غير مجرى الحديث بعدما قال ما يريد، ولما انتهت المقابلة وذهب لم أخبر أمي عن تلك الجملة الغريبة التي كانت صريحة حد الجرح خاصة وأن أحدًا لم يتحدث يومًا عن عصير أمي أو أي شيء تصنعه أمي، لو أخبرت أمي لحزنت كثيرًا ولو أخبرت أبي لاتصل به في لحظتها وعاتبه بشدة وربما تفاقم الأمر، قالت أمي بعد ذهابه:

- يبدو شابًا محترم.

قلت:

- لا أشعر نحوه بالراحة.

قال أبي:

- أراه مناسباً ومن عائلة أصيلة، ستأتي الراحة مع الخطبة والمواقف.

وبعدها تمت الخطبة التي تتابعت فيها المواقف التي أكدت لي أنه صريح حد الوقاحة لا يهمه وقع كلماته على شعور الآخرين، كنت حينها في السنة الأخيرة في الجامعة وحين كنت أسرد هذه المواقف على صديقاتي حدثتني إحداهن عن قصة شهيرة لازلت أذكر تفاصيلها جيدًا لشدة ما أعجبتني، حيث تحدثت القصة عن تجربة لفتاة فقالت:

- لا يعجبني خطيبك!

قالتها جدتي بعد رؤيتها لخطيبي لأول مرة وسط تجمع كبير للعائلة، ضايقني ذلك كثيرًا وبدأت أسرد لها مميزاته وكم يحبني ويعدني بكل السعادة معه إلا أنها لم تقتنع أبدًا وأردفت قائلة:

- لا تتسرعي بخطوة زواجك.

أعدت له جدتي بعدها كوب عصير ولأنها لا تُبرد المياة في الثلاجة بل تُفضل شُربها من الأواني الفخارية، كان العصير متوسط البرودة فلما تناول رشفة منه دفعه بيده إلى الطاولة وأظهر الضيق على وجهه وقال لي بصوت مسموع:

- هل تقدمون العصير دون تبريده إلى الضيوف!

سمعته جدتي ولم ترد سوى بابتسامة بسيطة لي كأنها تؤكد ماقالته لي منذ قليل، لكن شعرت أنه مجرد موقف عفويّ منه لا يقصد منه شيء، ولم أجعل للأمر مساحة كبيرة من تفكيري فمن المستحيل الحكم على أحدهم لمجرد موقف!.

قُبيل عقد القران أصر على إجراء بعض الفحوصات، سألته بتعجب:

- ولمّ؟

لكنه وبكل حزم قال:

- أخاف أن أتفاجئ بعد الزواج أن هناك أي مشكلة تمنعك من الانجاب!

وقعت جُملته على صدري فشعرت ببرودة تسري بجسدي من الصدمة، ابتلعت ريقي بصعوبة شديدة ثم قلت:

=لم أفهم قصدك هل تعني...

قاطعني بحدة وقال بصرامة:

- أعني ما أعنيه... ماقلته للتو لا يشوبه خطأ فهذا مستقبلنا، تخيلي فقط أن نتزوج ونكتشف مشكلة كهذه هل الطلاق أفضل أم فض الخطبة.

أعلم أني عهدته صريحًا جدًا لكن ليست لهذه الدرجة لكن بالفعل اقتنعت بكلامه وقررت إجراء الفحوصات والتي أظهرت أن كل أموري بخير كذلك كان هو الآخر بخير، خرجنا من المشفى بعد الحصول على الورقة الموقعة والابتسامة تغشاه لكن فجأة توقفت، نظر إليّ باستغراب:

- ماذا دهاكِ؟

بمنتهى الهدوء قمت بخلع خاتم الخطبة من يدي وقلت:

=كنت في البداية أعتقد أن مشكلتي معك بسبب صراحتك الجارحة أحيانًا، لكنِ اكتشفت أن المشكلة أكبر وهي أني فقدت الأمان معك بكلامك الصادم، ماذا لو حلت مشكلة بعد زواجنا هل سترمي بي؟، حديثك يوم أخبرتني بإجراء الفحوصات كان جارحًا حد الوقاحة، ربما لو قلت لي نريد الاطمئنان فقط على صحتنا لما أشعرتني بما شعرت به، لكنك يومها أرسلت لي شفرة بين كلماتك أني لست سوى آلة للانجاب أما أن تصلح فتتزوجها أو تفسد فترمي بها!، أفقدتني الأمان لذا سأبحث عنه بمكان آخر.

لم يستطع الرد فقد كانت المرة الأولى التي أحاوره فيها بنفس طريقته الجارحة، ذهبت مباشرة لبيت جدتي وأنا أخبرها بما حدث، قالت وهي تربت على كتفي:

- الحمد لله على كل شيء.

سألتها ماذا قصدت يوم همست لي أنه لا يعجبها، ابتسمت وقالت:

=وقت أن دخل بدأ يجول بنظره على الجميع مُدققًا بعينه في تفاصيلهم وقد بدا على وجهه الاعجاب حين رأى بنات خالاتك، ثم جلس بدأ يتفحص كل جزء في البيت وقد بدا على وجهه الضيق حين رأى الحصر مفروشة على الأرض بدل السجاد، وأبدى بعدها ضيقه من العصير ، صراحته الشديدة في ابداء مشاعره غير مكترث لمشاعر من معه جارح للغاية، لم يهمه أن تغاري

لو رأيتِ تلك البسمة ونظرة الإعجاب التي علت وجهه تجاههن، لم يهمه أن أحزن من نظراته لبيتي العتيق، لم يهمه كوني أجلس وأسمعه متعمدًا ابداء رأيه بإحراجي.

(قمة الوقاحة هي قصد الكلام الجارح الصادم وقعه على النفوس بحجة أنها صراحة).

تذكرت الموقف وأنا أسترجع تفاصيل القصة وأردد الجملة الأخيرة فيها وأنا أعاتب نفسي كثيرًا لأني تداركت أمرًا كان شديد الوضوح، فقد عرف أني لا أشكو حزني لأحد وخلال خطبتي لم أشكُ صراحته ولا أحاديثه الجارحة أحيانًا لأحد فعرف طبعي فتمادى كثيرًا.

في صباح اليوم التالي وبعد سهرة طويلة مع طفلي الذي أعلن تمرده على النوم ليلًا نام أخيرًا فخرجت مُسرعة نحو المطبخ لإعداد الطعام، وبنفس الوقت قمت بتشغيل الغسالة وتنظيف الصالة التي مُلئت بالأطباق والكاسات بجانب الأريكة التي يعتاد حازم الجلوس عليها والذي ما هان عليه حتى حملها للمطبخ، انتهيت بعد ساعتين تقريبًا وعدت لصغيري الذي استيقظ من جديد.

عدت بالذاكرة لبداية زواجي حين كانت الحياة أهدأ بكثير مما هي عليه الآن، كان يعود باحثًا عني في أرجاء المنزل مناديًا باسمي، كنت أنتظر لحظات قدومه لتزول عني الوحدة، لكن مع الحمل وتدخلات أمه الشديدة وخلافاتنا التي تحولت بعد ذلك لصمت طويل تبعه استقلالي بغرفة الصغير

في نهاية حملي هربًا من الحديث معه ومرة بعد مرة أصبحت العلاقة ميتة وأصبحنا غرباء نقيم في بيت واحد لا تجمعنا سوى لحظات بسيطة وعتاب بالأعين كثير ومشادات كلامية قصيرة يعود بعدها كل واحد فينا إلى غرفته.

في المساء عاد حازم من عمله ووضعت الطعام على السفرة لكن الصغيرالهادئ أعلن تمرده من جديد وراح يبكي، أمسكت به بيد وبدأت أتناول طعامي بالأخرى لكنه لم يسكت، تركت كل شيء وحملته للغرفة وأنا أبكي لشدة ما أعاني ولا أرى منه وهو يطالعني أي حنان وكأن الصغير ابني وحدي، قال وقد أنهى طعامه وقام عن السفرة:

- أعدي الشاي؟

صار الأمر بمثابة تحدي بعد زيارة الجار وزاد من تحامله عليّ كأنما يُؤدبني على ما كان من الجار، دقّ الباب فكانت زوجة الجار التي أتت تحمل في يدها طبقًا من الحلوى فاستقبلتها ودخلت معي لغرفتي، حملت الطفل من يدي قائلة:

- تبدين شديدة الوهن يا عزيزة.

قلت والدموع في عيني:

- الحمد لله.

قالت:

- حسنًا قومي واغسلي وجهك وأعدي لنفسك مشروب دافئ يُدر الحليب في صدرك وجهزي ماتريدين في مطبخك وها هو الصغير في حضني.

ما كان أمامي إلا أن أنتهز الفرصة التي مسحت على قلبي بما كنت أتمنى، ما كنت أتمنى سوى أن يُحمل الصبي عني لبعض الوقت فياليت جميع من زارني حمله عني لو قليل والله لكانت زيارته أنفع بكثير من النقدية التي توضع في يد الصبي، ذهبت سريعًا وتناولت طعامي وأعددت لي ولها مشروبًا ساخن ولزوجي الشاي، ونظفت مطبخي سريعًا فربما لا تتكرر الفرصة، عدت إليها أعتذر عن تأخري قالت:

- لا تعتذري أُقدر ما تمرين به.

ثم بخجل واضح قالت:

- آسفة على تأخري عن المجيء، كنت أخجل من القدوم لعلمي أن زوجك يمنعك من الاختلاط بالجارات، لكن أخبرني زوجي بما كان فلم أتردد عن القدوم لتقديم أي مُساعدة.

خانتني دموعي فبكيت واحتضنتها بشدة وكم كنت أحتاج لأن يُطمئنني أحدهم، خاصة وقد انتقلت للعيش بعيدًا عن محافظة أهلي ولم أخبرهم يومًا بما أعاني، وصارت علاقتي بهم محض زيارات بسيطة ومكالمات أبسط، قلت:

- زاد الثقل كثيرًا وازداد زوجي عنادًا بعد زيارة زوجك المحترم.

اعتذرت:

- ليته ما بادر لكن كان في طريقه للخارج فسمع ما كان بينكما فأراد أن يتدخل بالود علّ زوجك يهدأ.

دقّ الباب من جديد وارتفع رنين الجرس بصخب فكانت حماتي التي دخلت وبصوتٍ مرتفع:

- أين زوجتك؟

قال:

- في الداخل.

قالت:

- أعانك الله يا ابني.

ثم وجدتها بعد ثوانٍ تقف أمام بابي وأسرعت تأخذ ابني وهي تشم ملابسه وتزنه بيدها دون أن ترحب بجارتي، قالت:

- لمّ لا يزيد؟ ألا تُرضعيه بشكل جيد!

قلت:

- بل يرضع حتى يشبع وينام.

- وماذا تفعلين عند نومه؟

- أنهي ما أستطيع من أعمال.

جلست في طرف السرير وقالت:

- بعد شهر من ولادة ابني أعددت مائدة ضمت كل أصناف المحاشي ودعوت كل معارف زوجي ليتباهي بزوجته العفية أمامهم فقد كانت جميع النساء هكذا.

قال زوجي وهو يستند على الباب :

- والله لن نرد لكِ كلمة، في الغد جميعكم مدعوون على أصناف المحاشي واللحوم أنتِ وجارنا وزوجته.

نظرت جارتي نحوي بصدمة لم تتوقعها وقبل أن تعرض المساعدة الذي توقعها هو قال موجهًا كلامه لها:

- سننتظركم في الغد عند الخامسة.

كان الجميع ينظر لي يتحسسون ردة فعلي التي حتى اللحظة أحاول مواراتها رغم ما يثور داخلي، رغم مايبكي داخلي لكن لو انتفضت وامتنعت لكان أسهل ما عنده طلاقي، يالله الطلاق ويتشمت بي الجميع ويقولون لم تُعمر وما كانت أهلًا للزواج، لو كان المجتمع ينصف المرأة المظلومة لكنت فعلتها منذ أيامي الأولى وقد رأيت منه شخصًا آخر غير الذي تخيلته، حتى أنه كلما حدث خلاف هددني بالطلاق فما ألبث أن أحاول لملمة الأمور رغم أنه المُخطئ والمتعدي على حقي، انهمرت دمعة من عيني رغمًا عني، فمصمصت أمه شفتيها قائلة:

- في الغد سنذهب للاسكندرية فأختك تحدد موعد ولادتها وسأبقى عندها لفترة.

كدت أتحدث وأدافع عن نفسي فها هي أخته التي من نفس عمري ستذهب أمها لتُعينها وتساعدها، لكن ابتلعت لساني من جديد فأمي رفضت المكوث معي لأيام وطلبت مني أن أعتاد المسؤولية منذ يومي الأول كيلا أعتاد الكسل والتراخي والاتكالية، قال:

- أعانك الله وأعانها.

قامت أمه وخرجت فتبعها بعدما رمقني بنظرة حادة لم أفهم سببها، لكن

ما أن غادر حتى انفجرت باكية فاقتربت الجارة تحمل الصبي وتربت عليه بهدوء ثم قالت:

– لا تحزني.

قلت ولم تجف دموعي:

– لكنِ متعبة الجسد لقلة نومي ومتعبة القلب لشدة جفاء قلبه معي، لا أسمع سوى التوبيخ ولا أرى سوى نظرات التوعد والتهديد، لو فقط يربت على قلبي بكلمة دافئة تُعين قلبي فيسير الدفء في جسدي فأقاوم كل شيء، لكن لا أجد فيشتد الوهن في كل جزء مني.

قالت بعتاب:

– لكنه خطؤك منذ البداية تنازلتِ عن الكثير منذ البداية.

توقفت للحظة عن البكاء وتنهدت متسائلة:

– أنا؟

وضعت ابني على سريره وقد راح في النوم بين يديها ثم عادت لمقعدها قائلة:

– الضعف هو بداية كل تعب يا عزيزة.

بالفعل أنا ضعيفة لكن ما ذنبي أنني أخاف من عواقب الأفعال، لم أرد فزادت قائلة:

– كان ينبغى منذ يومك الأول ألا تستسلمي لتهديداته، كان يجب أن

تحتج على الطريقة التي لا تُناسبك وأن يفهم أن تلك الطريقة لن تستمر معها الحيَاة السوية، كان يجب أن تصمدي أمامه وتطلبي المناقشة فيما لا يعجبك، من المستحيل أن يكون قد صار جافيًا بين يوم وليلة، لابد وأنه كان هكذا منذ البداية وأنتِ تغافلتِ وربما تجاوزتِ كي تسير الحياة، لكن كيف تسير الحياة دون طاقة، الكلم الطيب هو وقود الانسان فإن نضب فكيف يستطيع السير والمقاومة وتخطي العقبات.

قلت مدافعة عن نفسي:

– كنت أخاف الاحتجاج فيرمي بي عند أقرب محطة ويُعيدني لأهلي من جديد.

– وهل عودتك لأهلك ومعرفتهم بما يحدث عيبًا؟ من حقهم التدخل إن تفاقمت الأمور بما يستحيل معه المعيشة في مثل هذا الوضع؟ ليست العودة لأهلك تتوجب الطلاق بل بالعكس سيعرف قيمتك حين يرى معزتك عندهم، حين يرى تقديرهم لكِ.

بكيت وتنهدت بوجع:

– لكنهم لن ينصفوني أبدًا خاصة وأني تزوجت وأنجبت، ربما لو أخبرتهم وقت الخطبة لكان هناك رد فعل قوي، عند ولادتي رفضت أمي المكوث معي وعدّت نفسها زائرة ورحلت وهي ترمي على عاتقي كل شيء.

صُدمت من كلماتي وظهر أثر ذلك في عينها، ماستطاعت أن تُكمل مجرى الحديث مع أهلٍ لن ينصفوا ابنتهم أبدًا ولن يزيدها عودتها إليهم إلّا إذلالًا بعودتها إليه مرةً أخرى، قالت:

- إذًا الصبر والدعاء والتريث علّه يومًا يتغير.

ضحكت رغم حزني:

- لن يتغير فمثله لا يتغير.

سكتت هُنيهة ثم عادت تقول:

- لمّ لا تبدئي أنتِ بالتغير علّه يتغير؟

- أتغير؟ كيف أتغير؟

- تكونين أقوى، تدفعين عنكِ الحزن، لا تنتظري أن يكون هو العامل الرئيسي في جعل مزاجك أفضل، تبتسمين رغم كل مافيكِ، تنفضين عنكِ الذكريات الأليمة وكل ما كان، تتقربين إلى الله مااستطعتِ، تُرطبين لسانك وقلبك بالدعاء والذكر ما دُمت تجلسين وترضعين ابنك، تستعينين بالله على قضاء ما عندك من أعمال وسيعينك بإذن الله، أما إن بقيتِ على هكذا حال من البكاء والحزن فلن يزيدك سوى تعب ووهن، ولن يزيده سوى تحدٍ وعناد.

فكرت قليلًا في كلماتها ثم قلت:

- وإن لم يتغير!

ابتسمت:

- يكفي أن تتغيري لنفسك أولًا ولطفلك الذي يمتص لبنك ويصب في جوفه كل ما تشعرين به من استقرار نفسي ويُؤثر عليه ثانيا ولاستمرار الهدوء في بيتك دون عناد منه وتمادٍ في الغضب ثالثًا، وحتمًا سيسكت حتى لو لم يتغير سيسكت لأنه لن يجد ما يحمله على محاولة التعدي عليكِ.

كانت لكلماتها دفعة جميلة في نفسي، كلماتها الطيبة ونصائحها الغالية قلت:

- سأفعل ذلك علّه ي....

لم أكد أُكمل كلمتي حتى دقّ بيده الباب بقوة وهو يهتف:

- ألن تُعدِ العصير لأمي؟

هو حتى لا يمنحني الاحترام أمام الناس ولا أتعجب فمنذ الخطبة كان يصرخ في وجهي وقتما يريد ولم أفعل شيء فاعتاد كل شيء، بدا الحرج الشديد على جارتي فانسحبت سريعًا نحو شقتها، بينما اتجه هو نحوي بنظرة قاسية:

- لنا حديث طويل بعد مغادرة أمي التي لم تُكرميها في بيتي.

تبددت الراحة التي غمرت قلبي منذ قليل وتحولت لرماد ونسيت معها كل ما كان وقمت مُسرعة نحو المطبخ أعد العصير بكى ابني فخفت الذهاب إليه قبل أن أقدم العصير، قدمت العصير واتجهت مُسرعة نحوه أحمله ليسكت فقالت بنبرة مرتفعة:

- لا أحب المشروبات الباردة سأذهب لأستعد وأحضر بعض ما ينقصني.

ألم يكن من حقي كلمة تقدير بسيطة بدلًا من تلك الكلمة التي تعلم أنها لن تثير في نفس ابنها سوى الغضب مني!، جلست على طرف السرير أنتظر عاصفة ستحدث الآن فور ذهابها، دخل والغضب في عينه قائلًا:

- ألم يكن من الواجب أن تقومي أنتِ بدعوة أمي للغداء؟

ثم أردف:

- ألم يُفترض أن تُصري على دعوتي لهم للغداء؟

- أعددتِ العصير ولم تقدمي الحلوى معه!

ماستطعت الرد أبدًا وتماثلت الصمت التام فخرج يتأفف ويهمس بالكلمات من برودي الشديد.

ماكانت الليلة إلا امتداداً لكل الليالي السابقة، بكاء الصغير ووهن شديد ومزاجية اشتدت سوءًا وزاد عليه حمل هم كبير لما طُلب مني إعداده في الغد، شغلني الحزن عن التفكير بكلام جارتي واستمر الحزن ينهش في قلبي حتى طلع الصباح وغادر لعمله، وغلبني النوم فما شعرت بالوقت إلا مع آذان الظهر، قمت منتفضة من فراشي أركض هنا وهناك لا أعلم بماذا أبدأ ولا كيف سيسعني الوقت، لكن تذكرت كلام جارتي فحممت الصغير ورضع حتى شبع ونام فاتجهت صوب مطبخي وما كان بيدي إلا محاولة الانتهاء كيلا يزداد الأمر تعقيدًا وتحدي استعنت بالله وأنا أُجهز كل شيء فارتفع رنين الباب فإذا بجارتي جاءت تُساعدني، تشاركنا كل شيء حتى أذّن العصر ولا أدري كيف مر الوقت مع بكاء الصغير واحتياجاته وركضي بين الغرفة والمطبخ أنهي هذا فأبدأ هذا فأجهز هذا حتى انتهيت وأتممت كل شيء بفضل الله ثم بفضل جارتي التي قررت بعدما انتهينا أن تعود لشقتها وكأنها لم تأتِ، ماكانت تريد سوى مساعدتي لتخفيف الحمل عني بعيدًا عن علم زوجي، ورغم التعب إلا أن نفسي كانت هادئة مستكينة بعض الشيء.

دقت الخامسة فدق معها قلبي فهو موعد عودته، كان كل شيء جاهزا

لكن قلبي خائف يترقب جديده الذي لا ينتهي، دارت مفاتيحه بالباب وكان الصغير يبكي حينها وأنا أحمله ذهابًا وإيابًا، دخل فكانت رائحة الطعام تعبق المكان، فاتجه نحو المطبخ يتأكد وجلست أنا منتظرة هدوء الصبي لإعداد طعامه، جاء مُسرعًا:

– حين أدخل تلحقين بي أولًا وبطلباتي.

ابتلعت ريقي بصعوبة:

– والصغير؟

– اتركيه على الفراش لن يحدث له شيء.

– أليس من حقه بعض حنانك واهتمامك!

نظر له ثم عاد يقول:

– هو ولد وليس من المعقول أن يعتاد الدلال كي يُصبح رجلا قوي وشديد.

– وما العلاقة؟

– حين أقسو عليه من صغره يكبر وهو يعتمد على نفسه لا يأبه بالمشاعر بقدر ما يهتم بالأفعال.

هكذا تربيت يا زوجي وهكذا تريد أن يُصبح ابني!، ماذنب بنات الناس برجلٍ قاسي الطبع؟، لا أجد في طبعه سوى الشدة التي تُنفر ولا أريد أن يُصبح ابني يومًا قاسي الطبع فيؤذي نفسه قبل غيره، كيف يعيش الانسان دون مشاعر بل وكيف يعيش الحياة لمجرد الروتين دون تفاعل معها!، قال غاضبًا:

– أعدِ الغداء واتركيه على الفراش.

كان الباب يدق بالطبع هي جارتي وجارنا المدعوان على الغداء، ثم أكمل دون أن ينظر نحوي وهو يذهب نحو الباب ليفتح لهما:

– وأعدِ ملابسنا فسنذهب غدًا لحضور ولادة أختي بالاسكندرية.

تقدمت سريعًا حتى وقفت أمامه:

– لمّ نذهب؟

– لنكون جوار أختي.

تنهدت بنفاذ صبر:

– ألست أنا وابني أحق بهذا الجوار؟

لم يرد وراح صوب الباب يفتحه مُستقبلًا الجار وزوجته، دخل الرجل معه إلى الصالون فيما دخلت الجارة وولديها لغرفة ابني وذهبت أعد الطعام في المطبخ وأضعه على السفرة، تجمعنا حول الطعام فقال زوجي:

– أرأيت كيف أنها صنعت كل شيء واستطاعت اعداد كل شيء لما فُرض عليها.

ثم ضحك:

– يستطعن فعل كل شيء لكنه الدلال الزائد! فإن لبيت الدلال زدن تقاعسًا وإن شددت عليهن اشتدوا وأنهوا كل شيء.

نظر الجار نحو زوجته وظهر عليه الضيق فيما ظهر عليّ الحرج الشديد

لكن أكمل الجميع على مضضٍ شديد ومالبثوا أن انسحبوا سريعًا لبيتهم لما عرفوا أن سبب الدعوة كيديٍ من رجل يريد أن يسخر من الجميع، لم أتحرك من مكاني فعاد بعد أن أغلق باب الشقة، جلس وقال:

– أجلت أمي السفر للغد كي نذهب جميعًا.

قلت ولازلت ألوك الطعام في فمي ببرود شديد رغم غضبي واشتعال صدري:

– ولمّ أذهب أنا وابني؟

– لا تُجادلي يجب أن تساعدي أمي هناك.

كنت أحاول الهدوء وألا ينطلق الغضب على لساني وجدت الماء بقربي فشربت في محاولة مني لابتلاع الغضب والهدوء:

– لن أستطيع الذهاب ولن أقدر على خدمة أحد طالما لم يخدمني أحد.

استشاط غضبًا وانتفض من مكانه :

– من متى ولكِ لسان طويل وردود مستفزة!

دون أن أنظر نحوه خوفًا أن أضعف من جديد:

– ومن متى وأنت حنون وتعطف على من تلد وتوصي بمساعدتها والبقاء جانبها!، ألست مثلها، ألم ترغمني على كل شيء بعد أيام قليلة من ولادتي ولم أكن أقوى على الوقوف لشدة جرحي الذي لم يكن قد التأم! لمّ الآن يذهب الجميع ليخدم أختك وما سمعت منك حتى كلمة تُعينني، وجئت بالجيران تسخر مني أمامهم وتضع أنفي بالأرض دون اكتراث لي.

ابتعد عني وهو يردد:

- جُننتِ، بالكاد جُننتِ.

ثم توقف فجأة ونظر خلفه:

- هي جارتنا تلك التي تتلون كالحرباء وتتسلل عندك بالغرفة لتعينك عليّ وتعبث بعقلك فترددين مالا تفهميه.

- لكنك زدت كثيرًا في كل شيء ما عدت أتحمل، تحملت وتغافلت عن الكثير وما صرت أقوى على المزيد، حياتنا أصبحت بعيدة كل البعد عن الأمان، حتى أصبحت أخاف موعد عودتك من العمل، أخاف وقت تنادي اسمي، أي زواج هذا وأي حياة هذه.

لم يأبه بشيء وما تمالكت نفسي عن البكاء فظهر له ضعفي من جديد رغم محاولتي القوة، قال بحسم:

- سنتحرك في الصباح ولا نقاش في الأمر، لن يكون لغيري الأمر في هذا البيت ولن تُحققي مايدور برأسك.

ثم خرج من البيت وبالتأكيد سيذهب عند أمه، وقمت أنا ألملم كرامتي التي تبعثرت ولم أستطع التصدي للموقف وها هو يسحبني كما يريد لوجهة أعرف جيدًا أني سأحمل فيها الكثير من المسؤوليات والأوامر من كل من هب ودب.

ها قد فعلت ما استطعت وان لم يُجدِ نفعًا خاصة وأنها خطوة متأخرة جدًا، فهل أتراجع عن ذلك طالما لن يُغير جديدي شيئًا أم أحاول من جديد!،

كان حضن ابني هو ملاذي الوحيد وقتها ضممته لصدري وأنا أشكو حزني وخوفي إليه، أطلبه أن يكبر سريعًا ليكون سندًا أتكئ عليه، شعرت وكأنه يُجيبني بسكونه في حضني يبدو وأنه شعر بي فرأف بحالي، لم يعرف الدنيا بعد كما لم يعرف والده الذي حتى اللحظة ما صب في جوفه أي حنان متعللًا أن الحنان والحب مُحرم على الذكور كي تقسو قلوبهم ولا يكونوا أصحاب دلال ولين كما الفتيات، أتعجب كلما قال ذلك فالشخص الذي يتربى على الحب والحنان يُصبح سوي النفس أكثر من المحروم الذي يكبر وعقدة الحرمان ونقص الحنان بداخله، لمّ أعتب على زوجي وأنا التي عشت طوال حياتي أُعامل بالأوامر دون مناقشة إن كنت أحب ذلك أم لا، كنت الفتاة الوحيدة بين الذكور فكانت أمي لشدتها معهم تكون أشد معي متعللة أن ذلك هو الصواب في تربية البنات أن تكون الشدة بقدر كبير كيلا تنعوج الفتاة، ما عرفت أمي أن الحنان يمنح الأمان والثقة، حتى شبّ إخواني وهم يرفعون أصواتهم عليّ فأبكي وألزم غرفتي، ما رفضت يومًا معاملتهم وكنت أقبل بأي وضع يُفرض عليّ دون محاولة التغيير، كان كلام الجارة صحيحا بيدي أن أتغير وأُغير، ربما الوضع شديد الصعوبة لكن بيدي أنا أن أغيره ولو بالقليل، فما أصبحت حياتي وحدي بل هناك صغير أريده سوي النفس لا يكبر مع أم ضعيفة فيضعف هو الآخر، فالطفل يستمد قوته من أمه وتشتد ثقته بنفسه من أمه فأي ثقة ستكون معه وأنا على وضعي هذا؟

في الصباح كُنت قد جهزت كل شيء للذهاب معه ففكرة أن أعترض على الذهاب وأصر عليه لم تكن لتمر على خير وإن كنت أريد معالجة حياتي

كما نصحتني الجارة وجعلتني أفتح عيني على حقيقتي فيجب أن يكون بتمعن وبهدوء حتى لا تفسد الحياة بأكملها، طالما لي طفل من زوجي فلن ألجأ للانفصال ولم أجرب التغيير، لأجل الصبي سأحاول مرة وثانية وثالثة باللين واليسر، فعودتي لأهلي لن تختلف كثيرًا عن نظام حياتي مع زوجي بل ربما تشتد سوءًا على ابني، لا حياة هانئة منذ البداية لابد وأن الجميع يتعثر ويعاني ويكافح لأجل حياة سوية، وقف على باب الغرفة:

- ولمّ كل ماحدث بالأمس طالما نفذتِ كل شيء بالنهاية!

قمت من مكاني بهدوء ووقفت أمامه:

- كل ما بالأمس كان لأجل ابني الذي ما ارتوى حنانك منذ اللحظة.

ثم ناولته الصبي فعاد خطوتين للخلف لكني قربت الطفل الذي بدأ في البكاء أكثر من جسده:

- احمله فقط ريثما أُعد حقيبتي الشخصية.

ثم تركت الطفل بين يديه وما أن حمله حتى هدأ الصبي ربما لأنه شعر بالأبوة للمرة الأولى وربما لأنه شعر بحنان ما بين يد حامله، ابتسم قلبي رغم كل مافيه فمن يُسعد ابني ويريحه كأنه أراحني أنا فكما يقال «من أعطى ابني ثمرة نزلت حلاوتها في حلقي» تعمدت أن أتأخر مراقبة إياه لأرى ردة فعله، وجدته ينظر إليه متفحصًا ملامحه والصغير يحرك يده يمنة ويسرة دون تمييز فتلمس يده وجه زوجي فيخف عبوس وجهه حتى وجدت ابتسامة منه سرعان ما تلاشت لما لاحظني:

- ألم تنتهِ بعد؟

حملت منه الصغير وقد كان كل شيء قد تجهز تمامًا وسرنا معه للمقعد الخلفي بالسيارة لنمر على والدته والتي ركبت إلى جانبه، قالت:

- ناوليني الولد.

ناولتها إياه وكان يغط في نومٍ عميق علّها الراحة التي شعرها بعدما حنّ عليه والده، قالت:

- إذًا فلمّ كل ما فعلتيه بالأمس مع حازم وما أردتِ المجيء!

من جديد تبدأ العاصفة التي كادت تتلاشى بعض الشيء في قلبي، انقضت الهُدنة وبدأت المرأة تُشعل الحرب من جديد، أخبرها حازم كما ينقل إليها كل شيء دائمًا، شخصيته التي ما عدت أفهمها كيف لضعيف شخصية أمام أمه أن يكون مستبدًا معي!

هي المرة الأولى التي أذهب فيها للاسكندرية ويجب أن أحدد وضعي منذ البداية فعلى أساسه سأعامل هناك من قبل العائلة بأكملها، جمّعت كل قوتي لأحاول الرد عليها بشكل رصين دون إثارة المشاكل وتعكير صفو الجو:

- خفت على سليم أن يتأثر بتغيير الجو ما بين القاهرة والاسكندرية.

ماستطاعت أن تكمل طالما الأمر يتعلق بصحة الصبي، ثم قالت وقد أخفضت صوتها موجهة الحديث لابنها:

- ما وافق أخوك على السفر وسرعان ماأغلق المكالمة، أخذته زوجته لنفسها وأهلها كأني ما ربيته وتعبت عليه يومًا، أصبح جاف القلب يا حازم.

تأثر حازم بصوتها الحزين وكان هذا مايحركه دائمًا ويدفعه لتلبية طلباتها خوفًا أن يُصبح كأخيه الذي ابتعد متعللًا بكثرة مشاكل زوجته وأمه فآثر أن يُبعد زوجته عن كل شيء ودام بره بأمه من مكالمات وزيارات دون زوجته على فترات متباعدة مالبثت أن بدأت تنقطع، قال حازم:

- لا أعرف كيف للرجل ألا يُلبي رغبات أمه مهما كانت؟

يظن دائمًا أن البر بتلبية كل شيء دون تفكير وإلا يكون عاقًا، قالت وهي تنظر نحوه:

- أختك مُتعبة كثيرًا حتى أن الطبيب حدد لها ولادة قيصرية وسيكون الأمر أصعب عليها.

قال في حزن:

- أعانها الله لكن جميعنا معها حتى تنهض.

ثم نظر نحوي:

- لمّ لا تشاركينا الكلام؟

استيقظ الصبي حينها وبكى فناولتني إياه ويبدو أنه شعر بي ورفع عني ما يريده والده من محاولة ممارسة الرجولة أمام أمه لتهنأ نفسها وتفرح بابنها الذي يشكم زوجته، الرجل هو من بيده أن يجعل زوجته بين أهله تُعامل بتقدير أو تُعامل بإهانة فكما يُعاملها أمامهم تُعامل منهم بنفس الطريقة.

وصلنا ودخلنا الدار الكبيرة الحماة في الدور الأرضي امرأة بشوشة الوجه طيبة جلست في هدوء أمام تلفازها الصغير فلما سمعت الأصوات أتت

مُسرعة تستقبل الجميع، جلست بابني معها بينما صعد حازم وأمه سريعًا لشقة ابنتهم، قالت بهدوء:

- لمّ أتعبتِ نفسك بالقدوم؟

ثم حملت الصبي من يدي وبدأت تشم رائحته وتقبله قائلة:

- أحب الصغار كثيرًا وأشتاق للحظة وجود الصغار في بيتي ومن حولي.

جاءني صوت حازم يُنادي باسمي ويطلب مني الصعود سريعًا، حملت ابني واستأذنتها ولما وصلت عنده صرخ بي:

- لمّ جلستِ معها؟

- وما المشكلة؟

قال حماتي وهي تقف من خلفه:

- هي في حالها وابنتي في حالها فابنتي لا تحب الاختلاط بأحد فلا تتسببي في استغلالها الحديث مع أحدنا لتدخل لحياة ابنتي من جديد!

أي مقياس هذا الذي يكيلون به لا يريدون لابنتهم أن يتدخل في حياتها أحد رغم طيبة حماتها المسكينة، ويريدون جعلي كخادمة لا كلمة ولا راحة لها، دخلت حماتي مُسرعة ورمقني زوجي بنظرة حادة:

- ماجئنا للجلوس والتعارف بل جئنا لنكون جوار أختي، حتى الآن لم تدخلي عليها وهي المريضة في فراشها!

ثم ذهب سريعًا وتركني، دخلت على أخته وهي تتلوى في فراشها وتبكي

من التعب تذكرت ما كان بي من تعب لكن لم أظهر أي شكوى وتحملت كل التعب، قالت أخته:

- يكاد ظهري ينقصم ووجع معدتي لا أتحمله مع ركلات ابني.

قالت حماتي:

- حملك صعب يا حبيبتي كلها ساعات وتلدي بإذن الله.

دخلت وسلمت عليها فقالت:

- يوم كنتِ تلدين ما رأيت فيكِ أي تعب فاطمأنت نفسي لكنِ الآن أشعر وكأني أموت وجعًا.

قالت حماتي:

- كل جسد يختلف عن الآخر.

خرجت عن صمتي:

- كنت أكثر تعبًا لكنِ حاولت التحمل وتمالكت الصبر.

لم يأبه أحد لكلامي فأنا يومها كنت أحاول أن أبقى هادئة كيلا أظهر ضعيفة، وما كانت النتيجة إلا أن الجميع اعتقد أني لا أشعر بشيء سوى البسيط فوضعوا على عاتقي كل المتاعب، فحتمًا لن أشكُ ولن أعرب عن تعبي وما أشعر به، كان خطأ جسيمًا مني وهو ما جعلهم يتمادون في كل شيء لأنهم يعرفون أني سأتحمل ولن أتكلم ولن أشكُ ، الافراط في تحمل مالا يستطيع الانسان يجعله عُملة سهلة يُمكن للجميع أن يستعملها، هكذا كنت أنا متعبة لا أشكو فيزيدون وضع الأحمال، حتى مع زوجي قوية أتحمل كل

شيء فيعتاد ما يفعل دون أن يلحظ أن هذا يضايقني، كيف له أن يعرف أن تصرفه ضايقني دون أن يلقى صدى الضيق في نفسي، وأنا الغبية التي كانت تبتسم دائمًا رغم ضيقها كيلا يلحظ أحدًا حزنها، فكانت هذه النتيجة الطبيعية فلمّ أبدي الحزن الآن؟، ها هي تُشعرهم بكل ألم تمر به فيتعاطف الجميع معها وزوجها يجلس إلى جانبها يُؤلمه ما يؤلمها لفرط ما تصف له كل شيء، كنت أقف محزونة من كل شيء وأنا أذكر كلام الجارة فلم يكن أحد متسبب في كل هذا سوى شخصي، أنا من قبلت بهذا الوضع وتماديت في الرضوخ لكل شيء دون ردة فعل تُعرب عن ضيقي، فلا شيء يتغير لمجرد الشعور، لا شيء يتغير إلا بوقفة مع النفس أولًا ثم بوقفة مع الآخرين.

شعرت بدوارٍ شديد ربما لأني لم أفطر وأُرضع ابني منذ الصباح أسرعت نحو زوجي أُناولهِ الولد:

– أشعر بغثيان شديد.

تناوله مني وقبل أن يسأل عن شيء ذهبت تجاه دورة المياه وأغلقت الباب ووقفت خلفه، لمّا ناولته الصبي صباحًا تناوله حتى أنهي ما عندي، ولما ناولته الصبي الآن حمله لتعبٍ أشعر به، إذًا فلمّ منذ البداية لم أُحمله أي مسؤولية في مساعدتي ولو بالقليل، لمّ لم أطلب منه أن يبقى جواري وقت تعبي الشديد، لمّ لم أُرح جسدي المتعب وأُخبره بذلك حتمًا كان سيفهم فمن أين له أن يعرف ما يدور في نفسي، لا أذكر مرة أني طلبت منه شيئا طالما يأتي بطلبات البيت، لم أطلب حلوى بدلال لم أطلب وردة اهتمام لم أطلب نزهة حب لم أطلب كلمة

حب، لكن! لكن أنا أيضًا لم أفعل ذلك لمّ دائمًا أنتظر رد الفعل دون أن أقوم بالفعل نفسه! لم أبادله يومًا بالشوق إليه، لما رأيت منه جفاءً لم أحاول تقريب المسافة والحديث معه والاعراب عن مشاعري تجاه حياتنا، كنت دائمًا أقبل بأي وضع دون تغيير دون أن أتحدث عما في نفسي على أمل أن يفهم هو، لكن كيف له أن يفهم ولم أتحدث؟

نادت حماتي:

- عزيزة هل ستظلين طوال اليوم عندك؟

توضأت بالماء البارد ثم خرجت:

- أشعر بدوار شديد.

- هل انتهى نِفاسك؟

- انتهى وتطهرت منه صباحًا.

- حسنًا أرضعي ابنك لينام وتعالي لنُعد الغداء وحقيبة غادة.

تقدمت خطوتين نحو الصالة ثم التفت إليها:

- سأصلي أولًا.

- يمكنك معاونتي أولًا ثم الصلاة بعدها لازال الكثير على العصر.

- أحب الصلاة على وقتها.

مااستطاعت أن تقول شيء وقد قررت أن أبدأ بحقي أولًا وما يريح نفسي ثم حقوقهم وليس العكس، كنت أحتاج لخلوة مع الله ومع سجود

طويل أشكو فيه حزني ومع راحة نفسية تزيل عن صدري الهموم، فمن أين لي بالراحة إن لم أؤدي فروضي، وإني لأتعجب ممن يشكون قسوة الحياة ومُرها ولا يُؤدون فروض دينهم والتقرب إلى الله بالدعاء، دعوت الله كثيرًا أن يهديه لي وأن يربط بين قلوبنا بالود والحب وأن يزيل عن قلبه القسوة ويكون أحنّهم عليّ، انتهيت من صلاتي وتوجهت نحو زوجي وقد كان الصغير بين يديه مُستكين مُتلذذ بشعور الأبوة، هل يحمل زوجي حنانًا شعره ابني؟، لُمت نفسي حينها لأني لم أفعل ذلك من البداية، زوجي لا يُجيد التعبير عن شيء ولا يعرف المُبادرة بشيء، تربى بطريقة جعلته أنانيًا لكن طالما يتقبل تلك الأشياء الصغيرة التي أفعلها اضطراريا إذًا يُمكنه تقبل التغيير البسيط، قال وقد رآني:

– خذيه لينام داخلًا كي تلحقي بأمي بالمطبخ.

ابتسمت قائلة:

– شكرًا لك تبدو حنونًا جدًا لدرجة أن نام الصبي بين يديك فلا ينام الصغار إلا في حضن حنون.

ابتسم رغمًا عنه وسرعان ما عاد لوجهه الجاد، شعرت بسعادة في قلبي وقد رأيت صدى كلمتي في وجهه، لم أفعلها سابقًا وكنت فقط أنتظر أن يفعلها هو دون مُبادرة مني، يحتاج لمن يمدحه ويحنو عليه ليسعد، قال بهدوء:

– هيا قبل أن يستيقظ.

حملت الصبي واتجهت لتلك الغرفة التي أشار لي بأن أضع الصغير وما

يخصنا فيها لإقامتنا بها خلال تواجدنا، رفعت حماتي صوتها بالنداء فاستيقظ الصبي مُنتفضًا يصرخ، جاءت قائلة:

– ألن تأتِ لمساعدتي وإعداد حقيبة غادة.

قلت بهدوء:

– لكن استيقظ الصبي ومن الصعب أن يعود لنومه الآن.

– ألا تقومي بكل أعمال بيتك وهو معك؟ كأنك في بيتك وأنهي كل شيء.

إذًا هي تعرف أني لا أقصر في شيء ورغم ذلك تتهمني دائمًا أمام ابنها بالتقصير وتبث كل شيء في أذنه حتى صار يُصدقه ويتصرف على أساسه، قلت:

– لكنه يشعر بالأمان في المكان الذي اعتاده هناك ببيتي أما هنا فهو في مكان جديد لن يتوقف عن البكاء.

امتعضت كثيرًا وذهبت تنفر في غيظ وتوجهت للمطبخ، وشعرت ببعض الراحة وأنا أحاول تقديم راحتي وراحة ابني على راحة الجميع، وأنا أُقدم حقي على مايُريده الجميع، وأنا أقدم العدل لنفسي، يكفي ظلمي الكثير لنفسي سابقًا ولم يُقدر أحد شيء منه وحسبوه حقًا مكتسب فما وجدت كلمة شكر ولا حتى همسة إعانة، لكن بالطبع ما كان الأمر ليمر بهدوء وليس من السهل أن أتحول فجأة أو أُطبع الجميع بمنهاج جديد، نادت على زوجي بالمطبخ وسرعان ما أتى غاضبًا ودخل وأنا أُغير حفاضة ابني قال:

– هل جِئتِ للجلوس بالغرفة وتخدمك أمي؟

كدت أرد بغضب كما هو غاضب لكن سرعان ماحاولت الهدوء والتحدث بعقلانية دون أن يُمسك أحدهم خطأ عليّ:

- بكي الصغير واستيقظ وما أردت أن أُتعبك بحمله مرة أخرى بعد ساعات من القيادة وجئت أغير حفاضته ليهدأ قليلًا.

هدأ قليلًا، لكن صاح من جديد:

- ولمّ لا تتركيه على السرير كما تفعلين ببيتنا وتنهين كل شيء؟

ابتسمت من داخلي وقد اعترف أني بالفعل أنهي كل شيء وليس كما كان يتهمني، قد أملت أمه عليه الكلمات دون أن تنتبه أنها تُمليه الحقيقة والانصاف لي، قلت:

- إذًا تعلم أني أنهي كل شيء ولم أشكُ يومًا لك ولم أُحملك حتى شكوى تعبي.

ابتلع ريقه وتبدلت معالم وجهه وما استطاع الإكمال في الحديث الذي حتمًا سيخسر فيه أمام امرأة هادئة، ثم أدار ظهره وغادر نحو البلكونة ذات الهواء العليل، أعرف حتمًا أنه يُفكر في الجملة التي قالها للتو دون أن يفهمها ويُفكر في ردي الذي أحرجه أو ربما جعله يُعيد التفكير، هدأ ابني فاحتضنته ورويته بالحنان والهمس بكلمات الاطمئنان في أذنه فشعر بي وهدأ فوضعت إلى جانبه بعض الألعاب ذات الألوان المُبهجة ثم بعض الوسادات خوفًا أن يتحرك ويقع رغم أنه لم يصدر عنه حركات بعد إلا أني أخاف عليه ففعلتها، وبهدوء توجهت نحو المطبخ كانت حماتي في ضيق شديد فما أردت أن تقوم

العاصفة من جديد ولما رأيتها وقد أوشكت على تحضير كل شيء، أعددت كوبًا من الشاي وضعت فيه النعناع ثم توجهت نحو البلكونة أضعه أمام زوجي، ماستطاع التحدث وتظاهر بالانشغال فتأكدت أنه لازال يُفكر فيما حدث منذ قليل فتوجهت نحو المطبخ أحاول المساعدة ولم يتبقَ فيه من أعمال سوى القليل جدًا، دقّ باب الشقة فكانت حماة غادة، دخلت على غادة قائلة:

- كيف حالك الآن؟

لم ترد غادة وصارت تئن من التعب، قال زوجها:

- كما ترين يا أمي مريضة جدًا.

قالت حماتها:

- طلبت من الست تحية أن تخبز الفطير لنأخذه معنا للعيادة حتى لو تأخرنا لا نضطر للخروج لشراء طعام، وأعددت الدجاج و....

لم تكمل كلمتها حتى تدخلت حماتي سريعًا:

- أعددنا كل شيء فلا داعي للمزيد.

ظهر الحزن على وجه المرأة ونظرت نحو ابنها أن ينصفها بكلمة أو حتى يشكر صنيعها أو يراضيها لكن ما كان أن فعل، قلت سريعًا:

- شكرًا لكِ يا خالة كم كنت أشتهي الفطير خاصة وأني سمعت أنه يتسبب في إدرار الحليب عند المُرضع.

ابتسمت المرأة وهنأت نفسها لما ربت على قلبها وقد شعرت بحزنها قالت:

- حين يصل سأناديكِ سريعًا.

قلت:

- في الانتظار يا خالة، سأعد لكِ الشاي حالًا.

- لا داعي يا ابنتي ارتاحي بجانب ابنك أعانك الله.

ثم خرجت لما لم تجد من ابنها الماكث بجانب زوجته رأفة بأمه الطيبة التي ما أرادت منذ زواج ابنها إلا سعادته ولما رأت شدة زوجته ونفورها ابتعدت في هدوء كيلا تُعكر عليه صفو حياته طالما هو سعيد، لكنه لم يقدرها لها فأصبح يبتعد أكثر فأكثر رغم مُحاولة وصلها دائمًا وصعودها بين فترة وأخرى بما يحبه علّها تشاركهم جو العائلة بدل وحدتها، لكن ما كان من غادة إلا السماع لكلام أمها ألا تسمح لها بالاقتراب كيلا تفسد عليها حياتها بتدخلاتها، والغريب أنها حزينة لأن ابنها الآخر فعل كما فعل زوج ابنتها بعد الكثير من تدخلاتها وشِدتها وتسببها في الكثير من المشاكل مع زوجته، لا تعلم أن الديان لا يموت وكما شجعت ابنتها على القطيعة منذ البداية مع امرأة طيبة قُطعت هي الأخرى.

ما أن خرجت المرأة من باب الشقة حتى أشارت غادة لأمها بعينها تجاهي دون أن يلحظ زوجها، فذهبت حماتي تجاه الغرفة التي ينام فيها ابني ونادت باسمي، ذهبت ولا أعلم ماذا يحدث، قالت:

- لمّ تُسببين المشاكل لابنتي؟

تعجبت:

- أنا؟

- كفاكِ تصنعًا للطيبة، أردتِ احراجنا أمام المرأة بأنكِ الطيبة صاحبة الواجب وأننا بلا واجب، ألم أخبرك ألا تجاريها بالحديث كيلا تعتاد الصعود وتتقرب؟

غضبت من قسوتها وما رأينا من المرأة سوى الطيب من القول والفعل:

- وماذا فعلت المرأة كي يتلاشاها الجميع، حماة تُعد لأهل زوجة ابنها الفطير وتعد لهم الطعام فماذا فعلت سوى الطيب والكرم؟

بحنقٍ شديد قالت:

- لا علاقة لكِ بشيء، جِئتِ لمساعدتي وليس للاطراء على الآخرين!

- لا أطيق رؤية الطيب محزون جراء أفعاله الطيبة التي فعلها لفطرته الطيبة.

خرجت متأففة:

- ليتك ما جِئت ولا أتيت لنا بوجع الرأس.

رغم كدري من طريقتها إلا أن شيئًا بداخلي ابتسم لأني مافعلت سوى ما يُمليه عليّ ضميري، ألم تكن هي من ملأت رأس ابنها بقدومي معها؟

صرخت غادة فاتجه الجميع نحوها قالت:

- أشعر بألم فاق قدرتي وبسائل يُبللني.

حملها زوجها سريعًا وأسرعت أمها خلفها ومن خلفها زوجي، قالت حماتي وقد رأتني أحمل الطفل الباكي:

- ابقي هنا لتجهزي باقي الطعام فلم ينضج بعد.

كنت أعلم أنها لا تريد ذهابي خاصة وأن حماة ابنتها ستذهب ولا تريد أن أثير المتاعب من جديد كما تعتقد هي، والحقيقة أنها أراحتني كثيرًا وتركت لي مساحة كبيرة لأرتاح وأنام بعدما صار وجودي يسبب لها الضيق بعدما كانت هي من تُصايقني دائمًا.

ذهب الجميع وذهبت ألاعب ابني بنفسية هادئة فكان في أهدأ مرة رأيته فيها فحتمًا هو يشعر بما تمر به أمه إن كانت سعيدة سعد وهنأت نفسه وإن كانت حزينة حزن لها ومعها وعليها، كان جو الاسكندرية شديد الجمال والهدوء فكانت لحظة جميلة لأن أفكر في حالي بهدوء نفسي أكبر، تُرى ما سبب تلك السعادة التي غمرت فؤادي هل من مواجهتي لنفسي وحثها على الطريق الصحيح؟ أم من مواجهتي لزوجي بما أشعر حتى لو لم يكترث؟ أم محاولة أخذ حقي في الراحة؟ أم الهدوء قبل الرد كيلا تقوم مشكلة؟ أم لأني أدخلت السرور على قلب الحماة الطيبة؟، ارتفع آذان العصر فخجلت من نفسي لأن كل ما أنا فيه من سعادة وراحة لأني لجأت لله ودعوته براحة قلبي فكانت لي كل تلك الأسباب التي سهلها الله لي لتهنأ نفسي بعد كثير التعب.

كان الطعام قد نضج ورضع الصغير وراح يغط في نوم هادئ بنفسية هادئة ظهرت على ملامحه المستكينة، واغتنمت الفرصة والهدوء وذهبت لآداء فرضي وقراءة القرآن الذي هجرته منذ شهر وربما أشهر لفرط انشغالي في كل شيء وخاصة انشغالي بالحزن مع أن الدواء والراحة كانت أمامي لكن

عمى الحزن قلبي وعيني عنها وربما الشيطان من استحوذ على تفكيري ورمى بي نحو الحزن فالأحزان فاسود كل شيء في عيني، فالشيطان يستغل ضعف الانسان وحزنه ويبعده تارة تارة عن الله حتى يتمكن منه ويجعل الدنيا سوداء في عينه فيكرهها.

قُبيل المغرب بدقائق عادت الحماة الطيبة ودقت باب الشقة، كان الحزن يكسوها وربما لأنها وجدت في بعض اللين جاءتني تشكو:

– أهلًا يا خالة، كيف حال غادة؟

نكست رأسها في حزن ملحوظ:

– الجميع بخير، ستلد بعد العشاء.

ثم أردفت:

– ما لهم رغبة في وجودي ولا أعلم بماذا أذنبت؟

جلست إلى جانبها وربت على كتفها:

– لا يا خالة ربما فهمتِ الأمر بشكل خاطئ، الوضع حساس والجو يسوده التوتر.

بكت ثم تنهدت:

– يُؤلمني تلاشي ابني لي ولم أقدم له سوى الراحة ويوم قرر الابتعاد لم أرغمه على القرب حتى بات بعيدًا جدًا كأنه غريب.

ما كنت أدري ماذا أقول في تلك الحالة فكل الكلمات تهرب في مثلها

حالة، كيف لرجل أن يبتعد كل البعد عن أمه بتلك الطريقة المحزنة وما كانت له سوى بلسم يشفي الفؤاد.

قالت:

- كيف حال ابنك؟

ابتسمت:

- هو نائم وها هو يستمر في النوم في حضرة أنفاسك الطيبة.

كفكفت دموعها وابتسمت رغم حزنها فالكلمة الطيبة لها سحر على القلب المحزون، قالت تستعد للنهوض:

- جبر الله بخاطرك وأعطاكِ حتى ترضى وتهنأ نفسك.

آه كم كنت أحتاج لمن يربت على قلبي بدعوة جميلة، استأذنت للنزول لشقتها فبعد قليل سيصل الفطير:

- حين يستيقظ الصغير شاركيني الجلوس أسفل.

نزلت وكم حزنت لأجلها وشعرت أنها بدأت تعلم أن ابنها سيحرمها الاستمتاع بالطفل كما حرمها منه وهو الجار القريب، ما أن أذّن المغرب حتى استيقظ من يُرسل لقلبي الحب والهدوء ويدفعني لأن أجعل حياتنا أفضل، بعدما جهزته وهممت بالنزول وأنا أقول داخل نفسي أن أمي لم تتصل بي منذ فترة ولم تسأل حالي وكم يُحزنني ذلك، لكن تراجعت عن فتح الباب للنزول وتناولت هاتفي فلمّ انتظر أن تتصل هي وأنا أيضًا لا أتصل ولا

أبادر، لم أفعل المُبادرة ليكون رد المُبادرة منها، لمّ دائمًا ننتظر تواصل الاخرين معنا ونحزن لعدم اهتمامهم ونحن أيضًا نفعل مثلهم، ردت قائلة:

- كيف حالك وابنك وزوجك؟

- الحمد لله بخير يا أمي.

استشعرت السعادة في صوتها ربما تفاجأت أني من اتصلت:

- سآتي واخوانك لزيارتك في الغد أو بعد غد.

- لكنِ لست بالقاهرة، ذهبت للاسكندرية عند أخت زوجي.

ارتفع صوت أمي:

- هل فقدتِ عقلك؟

- ما المشكلة؟

- لازال الطفل صغيرًا ولازلت مُتعبة.

- أنا بخير يا أمي لا تقلقي.

أغلقت أمي بعدها ولا أدري ما سر زيارتهم ولم تطأ أقدامهم عتبة بيتي منذ تزوجت سوى مرات معدودة على أصابع اليد الواحدة!، لكن سعدت نفسي من جديد لأني بادرت أيضًا بالفعل لأجد بعد ذلك رد الفعل فليس من المعقول أن أبادر بالتغيير مع الجميع ولا أحاول إصلاح العلاقة لما يُسعد نفسي مع أهلي فمهما حدث هم أهلي وأتمنى دوام الود والوصل بيننا علّهم يومًا يتقربون أكثر فأهنأ بعزوتهم حولي.

جلست مع الحماة في شقتها الهادئة التي استشعرت فيها الهدوء فور

دخولها لما فيها من أنفاس طيبة، قالت وهي تناولني الفطير مع الشاي الذي أعدته لي بنفسها:

- متى ستحضر سلفتك؟

- لن تأتِ.

- لمّ؟

- ربما متعبة.

لم تزد ولم أزد أنا الأخرى، وما مرت دقائق إلا ودخل زوجي من باب البيت الكبير وجدني جالسة وباب الشقة مفتوح، نادت عليه للجلوس فدخل على مضضٍ ورمقني بنظرة غاضبة، قالت الحماة:

- كيف حال غادة الآن؟

- بخير.

ثم أردف:

- جئت لأخذ حقيبتها لأن مع الاستعجال نسيناها.

تركتُ الصغير بين يدي الحماة وقد كانت سعيدة جدًا به وكان هادئ بين يديها وصعدت أجهز لزوجي ما أتى لأخذه، تبعني وما أن دخلنا الشقة حتى سحبني من يدي صارخًا:

- كانت أمي على حق حين أخبرتني أنكِ جالسة الآن مع المرأة لتعيدي الكدر لبيت أختي.

سحبت يدي من بين يديه الضاغطة بقسوة على يدي، قلت بتعجب:

- هل تُصدق نفسك يا حازم؟

- ماذا تقصدين؟

- ماذا رأيت أنت من المرأة الطيبة كي تتحامل عليها؟

- لا يهمني سوى راحة أختي.

- وماذا فعلت المرأة بها؟

تلعثم فلم يتكلم، زدت:

- كم مرة تعاملت بنفسك معها ولم تجد منها سوى الخير الذي يكسو وجهها وكلامها وأفعالها، فلمّ تتحامل عليها لمجرد أن أمك وأختك قرروا مقاطعتها؟

- لا علاقة لكِ بحياة أختي.

- فلمّ جئت بي هنا؟

لم يرد، هو شديد الترنح يُحاول تعويض ضعفه أمامهم بالقوة معي، لِنت قليلًا كيلا يتفاقم الأمر:

- هل ترضى أن أهجر أمك وأن أجعلك تتلاشاها تمامًا؟

- لن أسمح لكِ.

- لأني لن أفعلها ولم أفكر فيها أبدًا لأني أريد عائلة لابني وعزوة له رغم كل ما أعانيه.

– تعانيه؟ وماذا فعلنا بكِ؟

– هل رأيت كيف تُسخرون الراحة لأختك وكيف تتحدث أمك عن تعبها وكيف تُساعدها وتشفق عليها؟ رغم أني وقت مررت بكل هذا ما قالت إلا العكس وما فعلت أنت معي سوى زيادة الحمل عليّ بقسوتك معي.

كان ينظر نحوي دون أن يرد، زدت قائلة:

– ورغم ذلك جئت معك رغم تعبي وخوفي على ابني، ومع ذلك لم تشكر ولم تقدر، أما تلك التي تتحامل عليها هي من تربت على قلبي بالكلمات من وقت لآخر فأحببت مجالستها، لأني أحتاج لأن تهنأ روحي بالكلمة الطيبة التي لا تُحاول بتاتًا تقديمها لي.

لم يُعلق، قال:

– أين الطعام لأحمله إليهم سنبيت في العيادة حتى الصباح.

طالما لم يرد إذًا ليس هناك ما يقال وحتمًا سيدور الكلام في رأسه من جديد، قلت:

– سأجهزه حالًا.

جهزت له القهوة أولًا ثم جهزت كل شيء في أطباقٍ ورقية وحتى العصير وحمل كل شيء ولما همّ بالنزول، قال:

– شكرًا.

ثم نزل سريعًا وكم كانت لكلمته من فرحة غمرتني، بارقة أمل من جديد

وقد بدأ يشعر ويفهم كل شيء، يحتاج دائمًا لمن يُنير له الأمور فهو لا يفهمها إلا كما تُسرد له، ليتني صارحته بكل شيء منذ البداية وما راكمت كل شيء في قلبي وعانيت من كل شيء، غسلت الأواني سريعًا ونزلت والحماة تقرأ على ابني المعوذات قائلة:

– الزمي تحصينه دائمًا فلا يُصبه مكروه أبدًا ويكبر والخير والهدوء في قلبه.

قلت لها:

– شكرًا لكِ ليتك تسكنين جواري بالقاهرة لكنت في سعادة بجوارك.

ابتسمت:

– جبرك الله يا ابنتي وطيب خاطرك.

بعد العشاء صعدت بابني وأصرت هي على الذهاب لرؤية حفيدتها ولو لدقائق فكم تشتاق رؤية نسل بيتها، بينما كنت في غمرة من السعادة زادت في قلبي فكنت أعلم أنها الأخرى سعيدة بما قدمت لها ولذا هنأت نفسي برؤيتها سعيدة فدائمًا ما نقدمه من خير يعود على قلوبنا بالخير والسعادة لرؤية سعادة الآخرين.

دقّت العاشرة فجاء زوجي وتعجبت من قدومه، دخل وجلس قال:

– أين الصغير؟

أسرعت للغرفة أحمله وناولته إياه، قال وقد حمله:

– هيا استعدي للذهاب للمبيت مع أختي لأن أمي مُتعبة وتُريد من يبقى معها.

من جديد يا حازم انتشلت كل فرحتي بعدما رأيت بادرة أمل وسرعان ماسرقتها، قال:

- لمّ تقفين هكذا دون حراك؟

جلست على الكرسي المقابل له في تعجب منه وأنا أسأله:

- وابني من سيرضعه؟

- سيكون معنا هناك.

- سيكون قلقًا لشدة ما يتنقل، سيتعب ولا زال صغيرًا.

- لا تكثري الحديث وخذي الصغير لتبديل ملابسه واتبعيني للسيارة.

مشى عدة خطوات ولم أتحرك من مكاني، والآن إما أن أوافق خاصة وأنه غاضب ويبدو أنها من طلبت ذلك لمعاقبتي وكسر أنفي وإبعادي عن مجالسة الحماة، وإما أن أرفض وألزم موقفي لأني لو تقهقرت عن موقفي فسأخسر كل شيء كأني ما بادرت بشيء، قال وقد ارتفع صوته:

- كفاكِ عنادًا، لن تُفيدك الجارة التي بدلت حالك بشيء سوى خراب البيت.

- لن أذهب بابني لمكان يا حازم، ابني أهم عندي من الجميع وصحته أهم بكثير من كل هذا، بت ليلة الولادة وحدي وذهبت للنوم في البيت ولم يكن جواري سوى أمي حالها كحالي .

قامت العاصفة ولم تهدأ، ظهر الغضب الشديد على وجهه قائلًا:

- ولن أذهب من هنا إلا وأنتِ معي.

التزمت مكاني ولم أتحرك وبدأ الصبي يصرخ بين يديه وهو يسمع صراخ حامله، قال بنفاذ صبر:

- تماديتِ كثيرًا في العناد، ولا طاقة لي بكل هذا.

- أخبرتك منذ البداية أن مجيئنا لا فائدة منه فابني أولى الناس برعايتي وأحب الجميع لقلبي ولن أفرط في حقه أو أعرضه لشيء كي أرضي رغباتك أو بالأصح رغبات أمك.

وضع الطفل في حجري ثم مشى نحو الباب عدة خطوات ومالبث أن عاد مرة أخرى:

- أبعدي الشيطان عن رأسك وكُفي عن الكلام بتلك الطريقة.

تنهدت وقربت ابني من حضني وقمت من مجلسي في هدوء، قلت بصوتٍ شديد الهدوء:

- وهل يتم الحديث ونحن هكذا، تصرخ عليّ وابني بين يدك لأجل مسألة لن تعود علينا بأي نفع.

همّ بالغضب من شديد:

- أختي وأمي وتعب أختي و...

قاطعته بحزنٍ وصوتٍ مقهور:

- فلمّ لم أرَ منك إلا القسوة يا حازم، ألست كنت أولى الناس بحنانك

هذا الذي ما رأيته أبدًا، أليس ابنك هذا أحق بالحب والخوف الذي بداخلك على الجميع سواه، لن أقول لك اجعل لنا الراحة دون غيرنا لكن اعدل بيننا فمن حقنا أن نعيش بهدوء.

تراجع للخلف وكانت شخصيته المتذبذبة ظاهرة جدًا هو مقتنع بما أقول لكنه بين كلام أمه الذي تربى عليه وترسخ فيه طوال حياته وبين كلماتي التي يستوعبها العقل لكن يرفضها بقلبه خوفًا أن تظنه أمه خيّب ظنها كأخيه، قال:

– لا أدري من أين لكِ بكل هذا، فيمّ ظلمتك أنا كي تكوني هكذا وتكرهين أمي وأختي بهذا الشكل؟ تريدين أن تسلكي مسلك زوجة أخي، لن أسمح لك أبدًا ولن أعارض أمي لأجلك.

ثم ذهب منسحبًا من حوار يعلم جيدًا أنه الخاسر فيه وإلا لما ذهب، رغم حنقي الشديد منه وحزني من طريقته التي ربما لن تتغير بسهولة أبدًا وسيأخذ الكثير من الصحة والجهد كي يُصبح زوجًا ودودًا ومسكنًا آمنا، إلا أني ارتحت كثيرًا لأني لم أذهب معه ولم أتبعه بابني المسكين الذي سيعاني كثيرًا لو لم يتغير والده.

ما أسعدني بحق أني ما بكيت بعد كل هذا، كنت في كل مرة أتعرض فيها لضيق وحزن تنهمر دموعي مُعربة عن ضعفي الشديد لكن لم تنزل دموعي اليوم، سكن الصغير في حضني ودخلت به لغرفة النوم، ونمنا في هناء لم يسبق لي أن هنأته منذ ولادتي، لأن نفسي شديدة الهدوء وشديدة الرضا لأني للمرة الأولى في حياتي أُلبي لها راحتها وما تتمناه دون أن أهلكها بما لا تحب.

نفذ شعاع الشمس للغرفة فاستقبلته براحة شديدة بعد نوم شديد الهدوء وكأني لم أنم منذ سنوات فما شعرت بالوقت ولا بأي شيء والحمد لله كان طفلي يهنأ في حضني بالهدوء والحنان، بدلت ملابس ابني ونظفته ثم وضعته على السرير وبجانبه بعض الألعاب ذات الأصوات والألوان ومن حوله الوسادات، واتجهت للمطبخ أُعد الطعام فكان رنين الباب والدقات الهادئة، عرفت أنها ذات الوجه البشوش والروح الطيبة، قالت:

– لا تتعبي نفسك فقد أعددت كل شيء من طعام وشراب منذ الفجر.

– جزاك الله خيرًا يا خالة ياليت الجميع على حالك والله لدام الود والحب في البيوت كلها.

مدّت يدها لي بطبقٍ أعدته لي وقالت:

– سأذهب لهم وابقِ بالبيت مع ابنك.

فكرت قليلًا ورأيت أنه من الأفضل الذهاب معها طالما نحن بالنهار ولن نطيل الجلوس والجميع هناك وحتى لا يشتد الأمر سوءًا بيني وبين حازم، فلا بد من بعض الرخاء قليلًا كيلا تتفاقم الأمور خاصة وأن أمه لا بُد أنها وبخته طوال ليلها ولاقى من الكلمات الكثير.

ذهبت وابني مع الحماة الطيبة وكانت حماتي بجانب ابنتها تحمل الطفلة بين يديها وحازم بجانبها على الكرسي وزوج ابنتها يجلس على الجانب الآخر مُمسكًا بيد زوجته التي تئن من التعب، قالت حماتي بعدما ظهر الغضب على وجهها:

– أخيرًا تذكرتِ أن لكِ زوجًا لا بُد وأن تُجاوريه أينما ذهب.

قبل أن أرد قالت حماة غادة:

– أعانها الله على حِملها والله هي من أصرت على القدوم رغم إصراري عليها ألا تحضر.

نظرت حماتي لزوجي، ثم أردفت حماة غادة:

– جئت لكم بالفطير وبالدجاج البلدي لغادة و...

لم تكد تُكمل حتى قالت حماتي:

– لا داعي لكل هذا اشترينا في الصباح كل مانريد.

حزنت المرأة من جديد وهي التي لم تنم ليلتها تُعد كل شيء بغية التقرب من ابنها بمزيد من الود كي يقترب منها، لكن كان الآخر لا يرى سوى زوجته التي تئن والحزن على وجهه ولم يُبادر أمه بكلمة، قالت الحماة:

– زيادة الخير خيرين، ناوليني حفيدتي فكم أشتاق رؤيتها.

على مضضٍ من حماتي ناولتها الصغيرة ثم أشارت لي ولزوجي باتباعها خارج الغرفة، خرجت وخرج حازم سريعًا خلفها واتجهت نحو غادة أباركها ثم قلت لزوجها:

– بارك الله لك في أمك وأدامها عليك، طوال ليلها لم تنم وهي تدعو لغادة وتُعد لكم كل ما تشتهون وما أن طلع الصبح حتى أعدت بعض ما تُحضره معها وجاءت والشوق لا يسعها للصغيرة.

قال:

- شكرًا لكِ.

ثم نظر لأمه والتي انهمرت دموعها فرحة بالصغيرة قائلًا:

- شكرًا لكِ يا أمي.

قالت في مودة:

- بارك الله لك يا حبيبي ورزقك من الخير الكثير.

ثم قالت لغادة:

- حمدًا لله على سلامتك يا ابنتي والله أظلم البيت دون وجودكم.

قال ابنها:

- البيت مُنير بكِ دائمًا يا أمي وسيزداد إنارة بحفيدتك.

سعدت المرأة وهنأت روحها وظهر على وجهها الفرح الشديد وهي تنظر لي بود، قالت غادة:

- شكرًا لكِ على صنيعك.

نادى حازم باسمي فخرجت وتركتهم في حديث لطيف لم يكن لهم إلا بخروج حماتي التي تُؤثر على غادة دائمًا في قرارتها وإني لأرى في غادة امتنان لحماتها لكنها تخاف عصيان أمها فتغضب منها، خرجت سريعًا وهي تقول:

- هل أثرت عليكِ الولادة حد هذا الحد من التغيير؟

قلت في هدوء:

- أي تغيير!

قالت في غضب:

- لم تأتِ للمبيت معنا لمساعدتي!

- خفت على ابني من التنقل الكثير كان بالكاد سيمرض خاصة وأن الجو ليلًا كان باردا.

نظرت لحازم فأردفت قائلة:

- ولما طلع الصبح جئت لمباركة غادة والاطمئنان عليها.

- وهل جِئتِ معنا لمباركة غادة أم لمساعدتي؟

- جئت للمباركة وبالمساعدة ماستطعت وقد أعددت الطعام بالأمس وهيأت لها كل شيء في بيتها ما استطعت.

كان حازم ينظر بيننا دون حديث علّه يتعجب من ردي الذي لم أكن لأرده أبدًا، قالت حماتي:

- وتواصلين الود مع تلك التي جاءت معك.

- امرأة شديدة الطيبة بارك الله لابنتك فيها، طوال ليلها تدعو الله أن تقوم غادة بأتم صحة، وتعد لها ماستطاعت من الطعام المُحبب لنفسها، تُقيم في قلبها أفراحًا لقدوم حفيدة لها، لدرجة أنها في الصباح أوصت جارتها أن تعد الفطير الطازج من جديد بدلًا من فطير الأمس.

قال حازم:

- تُشكر على صنيعها.

ازداد ضيقها لما قال ذلك وقالت:

- تفعل ذلك فقط لتتمكن من بيت ابنتي وتخرب حياتها بعد ذلك بتدخلاتها.

ابتسمت وقلت:

- وهل قُرب أم الزوج من بيت ابنها والتقرب لزوجته يكون دائمًا بالخراب والتدخلات!

نظر حازم لأمه التي تتفحصه منتظرة منها الدفاع عنها وقالت:

- إلامّ ترمين يا عزيزة؟

قال حازم:

- لا بُد وأنها مريضة فقط يا أمي لا تقصد شيء.

قلت:

- لست بمريضة ولم أقل شيء أنتم من قلتم كل شيء.

قال بغضب:

- كفاكِ يا عزيزة والزمي الصمت.

قالت بنفاذ صبر موجهة له الحديث:

- ولدت غادة وستعود لبيتها اليوم وأنت عُد لبيتك فلا داعي لوجودك.

ثم نظرت لي وهي تُكمل:

- إلا المتاعب والضيق.

ثم دخلت الغرفة وأغلقت الباب بقوة، قال بضيق:

- هل أعجبكِ ما حدث الآن؟

- بالله عليك ماذا فعلت أنا، كنت أدافع عن المرأة الطيبة وليت كان في حياتي مثلها، حتى أن ابني استشعر دفء قلبها وحنانها.

- هيا يا عزيزة سنعود للقاهرة لكن عليكِ أن تُزيلي عن رأسك كل تلك الكلمات التي تُرددينها ولا تُحرك في نفسي سوى الضيق، وعودي لسابق عهدك من الطاعة والهدوء.

- إذًا كنت مُطيعة وهادئة؟

- هيا يا عزيزة لنذهب.

خرجنا من العيادة نحو شقة أخته لحمل ما يخصنا دون أن يتفوه بكلمة لكن كنت أعرف جيدًا أنه يُفكر في كل كلمة وكل ردة فعل، كان ليوم واحد ومواقف كثيرة وأحداث متتالية ونقاشات أكثر أن تجعله على تلك الحَالة من التخبط والصدمة، كان كطفل لا يعرف سوى أمه وفجأة ارتطم بكل شيء في العالم فعرف أن هناك الكثير ممن لهم حقوق، رأى كيف يهتم زوج أخته بها وكيف يُحبها وكم لهذا من سعادة وراحة لأمه وأخته رغم أنها هي نفسها التي تُخبره دائمًا أن يكون شديد الطبع مع زوجته لئلا تتمادى وتلغيه تمامًا، طوال الطريق لم يتفوه بكلمة فعرفت أنه مُسترسل في التفكير الشديد وبما أنه يُفكر إذا ستتسرب لروحه بعض الكلمات ويقتنع ببعضها.

وصلنا عند بيتنا وصعدنا لشقتنا وما أن دخلنا البيت حتى توجهت لغرفتنا الرئيسية وليس لغرفة الطفل التي لزمتها منذ الولادة لأريحه من صراخ الطفل، قال وقد رآني أضع الطفل على السرير وأضع بعض ملابسه في الدولاب:

– ماهذا؟

– من حقه أن ينعم بوالد حنون فينهل من حنانه فيصبح شديد التعلق به خاصة وأنه كلما اقترب من حضنك هدأ كثيرًا ألم تُلاحظ؟

قال وقد بدا عليه الضيق:

– اعتدت النوم وحدي.

قلت في هدوء:

– لكن ابني يحتاجك.

قال بتهكم:

– وهل أخبركِ بذلك؟

قلت وأنا أحمله مُقربة إياه منه:

– أخبرك أنت بهدوئه دائمًا في حضنك.

– هل ظننتِ أن كل ماحدث سيمر على خير يا عزيزة؟

قالها وقد ابتعد للخلف خطوة بوجهٍ شديد الغضب لم يسبق لي أن رأيته رغم كل ماكان من قبل.

ابتلعت ريقي وقد تخلل بعض الخوف إلى نفسي من نبرته الحادة ووجهه شديد الغضب، أردف قائلًا:

- ماذا أردت من كل هذا؟

قلت:

- ما أردت سوى سعادتنا.

ضحك ساخرًا:

- أي سعادة وقد تسببتِ في غضب أمي وطلبها مني الرحيل؟ هل تُريدين القطيعة معهم بغية الوصل بيننا!

- لم أُرد يومًا ذلك وما أردت إلا دوام الود بين الجميع.

- تكذبين يا عزيزة.

ثم أمسك بهاتفه وخرج من الغرفة ومنها إلى خارج الشقة، بكيت حينها رغمًا عني لفرط ما تحملت ولا أجد سوى الغضب والاتهامات الباطلة، مهما حاولت أن أصبح قوية أجدني أعود لنقطة الصفر من جديد، بكيت وبكى طفلي كأنه يساندني، وددت لو خرجت خلفه في حينها وتركت كل شيء خلفي وما عادت لي قدرة على مُحاولة تغييره، دقّ بابي فكانت جارتي، أسرعت أفتح رأت الدموع التي ما جفت بعد، حملت الطفل عني وراحت تُمطرني بكلمات الهدوء دون أن تسأل عما قد كان، قلت:

- فعلت كل ما بوسعي ولم أجد سوى الرفض والغضب والاتهام.

قالت:

– لا شيء يتغير بين ليلة وضحاها، لا رجل يتحول بين أسبوع وآخر، كيف تصورتي أن يقتنع سريعًا وقد ترسخ في ذهنه طوال عمره أشياءً أخرى.

تنهدت بوجع:

– الأمر صعب.

– لكن الحياة أصعب يا عزيزة، إن أردتِ السهولة فيها فعليكِ بمن سيجعلها سهلة في عينك ومن يُعينك عليها.

– أحيانًا أفكر في الانفصال رغم ما سألاقيه في بيت أهلي من صعوبة وحزن أكبر.

قالت تربت على يدي:

– لم يكن الانفصال يومًا هو الحل، هذا الصغير يستحق أن تُسخر وتذلل له الحياة الجميلة والهادئة، ربما الأحمال عليكِ الآن ثقيلة لكن ستهون بعد ذلك، ستجدين وسط العتمة بريق أمل سُرعان مايُضيء لكِ كل شيء، لكل منا عيب وعيبه أنه تربى بشكلٍ خاطئ لكن أيضًا ربما يستجيب، حاولي أكثر ولا تتوقفي، لتكون الحياة أفضل لكِ أولًا ولابنك.

هدأت نفسي بعض الشيء وكأن تلك الجارة هي البلسم ومحطتي التي أستمد منها الطاقة، فكما قالت سابقًا الكلمة الطيبة وقودنا في الحياة، قُلت بامتنان:

– شكرًا على كلامك.

– هذا واجبي ومن سعى في الخير سيّر الله إليه من يسعى لأجله في الخير.

ثم أردفت:

– لا تخلو حياتنا من الكدر والحزن لكنه التفاهم والتريث والرخاء تارة والشدة تارة هي من تجعل الحياة تسير.

قلت:

– بارك الله في زوجك هو محترم وطيب الخلق مثلك تمام.

– الحمد لله، سأخبرك بأمر وهو أن الجميع محترم وطيب الخلق لكنها العشرة وحدها من تُظهر معادن الناس.

تعجبت من قولها فأردفت:

– لا تخلُ حياتنا من مشكلات تعصف بنا من وقت لآخر ونختلف كثيرًا وطبع زوجي حين يغضب يقول الكثير من الكلمات الجارحة التي تجرحني كثيرًا لكن عرفت أن هذا عيبه فصرت أتجنبه وقت الغضب تمامًا فصار يهدأ حينًا وحينًا آخر لا يهدأ لكن لا يوجد من يخلو من العيوب.

أردفت تزيد:

– لكل بيتٍ حكايات ومشكلات وما كان البيت ليستمر إلا مع تحملنا ومحاولاتنا لإصلاح أحبابنا لتسير الحياة بهدوء، أعترف بمميزاته الكثيرة والحمد لله لكن أحيانًا ذلك العيب يُكدر عليّ صفو الحياة لكن ما ألبث أن أحاول تذكر الجيد من المواقف فتهدأ نفسي وأُراضيه، فصار يتبع نهجي في ذلك، وأحيانًا يظل كل واحد فينا ينتظر الآخر فيزداد الشوق بيننا حتى نُبادر سريعًا فنطيب أسرع، يجب على الإنسان أن يتذكر الجميل قبل السيء حتى لو

كان موقف واحد يُمكن أن يجعلكِ تفكري طوال وقتك في الصلح لتكرار الموقف الجميل.

تناولت حبيبي الصغير وأرضعته فهدأ كما هدأت واستكان كما استكنت، واستأذنت جارتي بالرحيل وكانت قد جاءت لما سمعت باب شقتنا يُفتح ويغلق فجاءت تطمئن أحوالنا، نام الصغير وعطرت بيتي بروائح عطرة تبعث النفس على الهدوء وإن كانت غاضبة، فكرت من جديد في كلماتها شديدة الأثر على نفسي، ثم تذكرت يوم مرضت كثيرًا بعد حملي مباشرة وارتفعت حرارتي ولزمت الفراش، يومها عاد من عمله ولما رآني على تلك الحالة صار يضع الكمادات على رأسي ويُعد لي بعض المشروبات الساخنة ويُناولني الدواء الذي يوجد بجانبي، ورأيت يومها خوفًا في عينه، مرة أخرى كنا قد اختلفنا على أمر ما وجاءت أمي مع أبي واخواني فكان شديد اللُطف معهم ومعي أمامهم رغم مابيننا من خلاف، تذكرت أني بالفعل يومها كنت شديدة السعادة وبعد ذهابهم اعتذرت له وتراضينا وطابت أنفسنا، هدأت نفسي تجاهه لما تذكرت ذلك وأحببت بالفعل أن يتكرر نفس الود، فكثرة تكرار مواقف الود تجعل الود يسود في المكان ويتبدد الحزن وكل الذكريات التي أحزنتنا يومًا.

حضّرت بعض الطعام الذي يُحب ومشروب الليمون مضاف إليه النعناع ليُنعش أرواحنا ويدفع إليها بمزيد من الهدوء، جاء بعد المغرب ودخل وقد دفع الباب من خلفه بقوة، فانخلع معه قلبي لكني حملت الصغير الذي كان قد استيقظ بسبب الصوت وخرجت من الغرفة، قلت:

– حمدًا لله على سلامتك، يبدو أن الصغير شعر بك فقد استيقظ فور دخولك.

لان وجهه بعض الشيء ثم قلت وقد وجدته جلس يستريح:

– حسنًا يا صغيري اهنأ في حضن والدك قليلًا ريثما أحضر له طعامه المُفضل.

انتظرت أن يُطالعني لكنه يتمادي وتكاد أعصابي من فرط التوتر أن تفلت مني لكنِ تماسكت وناولته الطفل وأنا أضعه بجانبه ثم دخلت للمطبخ وأنا أراقب ماذا سيفعل، كان الصغير ينظر نحوه ويرفس بقدمه تجاهه مُصدرًا بعض الأصوات، وجدته ينظر نحوه يبتسم ثم حمله وضمه نحو حضنه وراح يُلقي على مسامعه بعض الكلمات لكن لم أستطع سماعها، سعدت بذلك كثيرًا ورحت أقدم له مشروب الليمون بالنعناع:

– لا بُد وأن الجو حار بالخارج، سيلطف المشروب جسدك من حر الشارع.

قال دون أن ينظر نحوي:

– لست بطفل صغير تعتقدين أن تلك الأمور ستخمد الغضب الذي يعتمل صدري من تصرفاتك.

– تصرفاتي!

وضع الصغير بجانبه ثم قام من مكانه ووقف أمامي بتحدٍ واضح:

– تغيرتِ وما لي طاقة بذلك!

– لم أتغير أنا كما أنا لكن مشاعر الأمومة تقتضي أنا أُبدي مصلحة ابني وراحته على الجميع وكم كنت أتمنى لو تُقدم لمن يحمل اسمك ما أقدمه أنا.

قال وهو يضغط على الكلام رافعًا نبرة صوته قليلًا:

– لم أقصر في حقك ولا حقه.

– وماذا أدراك يا حازم؟ هل دخلتِ لنفسي لتعرف ماذا ينقصها وحكمت أنك قدمت لها كل احتياج.

– البيت مليء بالخيرات ولا يحتاج واحد منكم لأي شيء.

– هل الحياة بنظرك الأكل والشراب؟

قال بتهكم:

– فماذا ستكون؟ دور الرجل يقتصر على العمل وتوفير مايحتاجه أهل بيته.

– أليس الحب من الاحتياجات؟ الحنان؟ الود؟ الكلمة الطيبة؟ الربت على القلوب بكلمة تُهون مُر الحياة، الاهتمام بالصغار واحتضانهم؟ أليس من حقي وابني أن نرى في عينك الحب واللهفة؟ لم تكن الاحتياجات يومًا هي الطعام والشراب فالود أهم بكثير.

– لازلتِ ترددين كلامهم وتختلقين المشاكل، كنا نعيش كما نحن مرتاحين قبل عصيانك هذا الذي لن يعود علينا إلا بالخراب.

– كنت وحدك مرتاح يا حازم ولم أتذوق أنا الراحة، كنت أنام باكية فيبكي ابني لأجلي، كنت متعبة كل التعب بعد ولادتي وتحاملت على نفسي

كيلا أحملك مالا تحب فلم تُقدر ذلك وها قد رأيت بنفسك أختك المتعبة وشفقة أمك عليها، كنت مرتاحًا ولم تشكرني يومًا على تسخيري كل شيء لراحتك رغم كل تعبي وكنت دائمًا تتهمني بالتقصير في كل شيء.

سكت للحظات ماستطاع فيها أن يتحدث، اقتربت منه أكثر وأردفت:

– مادفعني للكلام سوى كثرة مابصدري من تراكمات، ماعدت أتحمل وحدي، أردت مشاركتك حزني أردت النقاش لنبدأ حياة سوية لأجل ابني، حياة تخلو من تعكر صفو النفوس لشدة ماتحمله من تراكمات.

بكى الصغير فذهب يحمله وكأنه يشكره أنه أنقذه من نقاش لا يستطيع أن ينتصر فيه، ثم قال:

– ألم يجهز الطعام بعد!

ما كان مني إلا أن ذهبت لإحضار الطعام للسفرة فكثرة الشدة لن تعود سوى بالمزيد من العناد مع مثل شخصية حازم، لكنه طالما سكت وانتهز فرصة بكاء الصغير إذًا هناك بادرة أمل من جديد وقد كان قديمًا يظل صارخًا في وجهي تاركًا لي البيت وغير مُتحدث معي لأيام، لا بأس بقطرة تغيير تُبرد القلب وتُشجع على الاستمرار، ماشتدت إلا وفُرجت بإذن الله.

تناول طعامه وشرب الشاي وجلس يُشاهد بعض الأخبار فتركت الطفل بجانبه وذهبت لأنهي تنظيف مطبخي، تعجب لذلك وقد كنت قديمًا أذهب من المطبخ للغرفة ومن الغرفة للمطبخ دون أن أحمله مسؤولية الطفل ولو دقائق خوفًا من غضبه مما جعله يعتاد الراحة من الطفل دون مبادرة المساعدة

في حمله وملاعبته ولو لدقائق، كنت أعلم أنه ربما يسأل عن تصرفي ويطلب مني حمله أو أخذه من جانبه ليستمتع بما يشاهده، لكن الغريب أنه لم يفعل ربما لا يود الدخول في نقاش طويل ويسمع مالا يحب فآثر الصمت أو لأنه علم أني لن أسكت وسأطالب بحق الطفل فسكت!، لا أعلم لكن الأهم أنه مختلف لهذا اليوم ويبدو أنه في غمرة من التفكير في كل نقاش حدث بيننا كان أهم مافيه هو راحة الطفل، النقاشات اللبقة تُبدد الخلافات وتأخذ العلاقات في اتجاه جيد مُثمرة مع الوقت على حياة أفضل.

قال وقد انتهيت وجئت للجلوس:

- لا علاقة لكِ بعد ذلك بالجيران.

- لم نرَ من المرأة سوى كل الخير.

قال بصوتٍ منخفض كأنما يهمس لنفسه:

- لم نرَ منهم إلا انعدام راحتي أعدم الله راحتهم.

دقّ الهاتف فكانت أمه همّ بإلقاء السلام لكن يبدو أنها كانت تتحدث فسكت، ثم قال:

- اهدئي يا أمي لم يحدث شيء لكل غضبك.

ثم سكت وعاد يرد:

- لكن أمه لن تُؤذي غادة في شيء تبدو محبة وسعيدة بالطفلة.

ثم سكت وعاد يقول:

- طالما غادة مُرحبة فما المشكلة.

ثم قال:

- كما تُحبين أمي.

سكت ونظر نحوي بغضب:

- لم تقصد يا أمي أرادت الهدوء لغادة.

ثم أغلق الخط ويبدو أنها اتهمتني بشيء فدافع عن مقصدي لا أعلم حبًا أم تهدئة لأمه الغاضبة والتي يظهر من مجرى الحديث أن حماة ابنتها الطيبة تلازمهم في المساعدة لما في قلبها من فرحة، قال:

- سببتِ الكثير من المشاكل وليتنا ما ذهبنا.

- لم أفعل سوى الخير وإني لأتمنى أن يعود لي كل ما فعلته لتهنأ روحي مثلهم.

- أي هناء وأمي غاضبة وتعلم أنكِ السبب.

ثم قام مُنتفضًا فقلت:

- هل أُحضر عصيراً بارداً؟

لم يرد وتوجه للغرفة يُبدل ملابسه ثم همّ بالنزول، قلت:

- يحتاج الصغير لحفاضات وكريم مرطب.

أماء بوجهه ثم ذهب وعاد بعد ساعة يحمل طلبات الصغير ثم جلس أمام التلفاز من جديد، فهمت أنه خرج وعاد لتبديل الحال وربما لهدوء النفس بل وحتمًا لعدم النقاش معي في أمور طويلة.

في العاشرة مساءً دخلت بالطفل للغرفة لأفعل ما نويت بالنوم في نفس الغرفة كي يعتاد طفله ويتقرب إليه وهو يمر معه بطفولته كلها لحظة بلحظة، لكنه تأخر كثيرًا في دخول الغرفة والنوم مع أن الصغير قد هدأ ونام سريعًا، خرجت فوجدته قد ذهب للنوم في غرفة ابني ويبدو أنه قد قرر أن يظل بعيدًا رغم محاولتنا القرب.

عدت للغرفة والحزن ينهش قلبي من ابتعاده عني وقضيت الليل ساهمة أفكر ماذا عليّ أن أفعل حتى يرق قلبه ويدق تجاهنا ونُصبح أقرب لقلبه فيعم الود والهدوء في بيتنا!

طلع الصبح وكنت قد جهزت فطوره فاستيقظ وتجهز للذهاب لعمله تذكرت حينها أمرًا هامًا كنت قد غفلت عن الحديث عنه منذ فترة رغم اهتمامي به في بداية الزواج، جلس لتناول الفطور فقلت:

- هل صليت؟

ابتلع ريقه ونظر نحوي قائلًا:

- سأصلي فور وصولي للعمل.

وضعت في طبقه الخبز الساخن وأنا أردد:

- كانت أسعد أيامنا حين كنت تذهب لصلاة الفجر فتعود وأنا بانتظارك على سجادتي وقد انتهيت من صلاتي، اليوم بعدما انتهيت تذكرت هذه الأيام وودت لو تعود لسابق عهدك.

- بإذن الله.

– سأوقظك في الغد بإذن الله فلا تتكاسل عنها فهي بركة البيت وسبب هدوء الأنفس، أريد أن يكبر سليم فيأخذ منك كل صفاتك التي أحب، أخلاقك ولباقتك وتقربك إلى الله بالصلاة في أوقاتها.

رأيت شبح ابتسامة على شفتيه لكن سرعان ماختفت، وارتفع حينها صوت الصغير فقلت مداعبة:

– لابد وأنه يُؤكد على كلامي.

ذهبت للغرفة وحملت الصغير الذي سكت بين يدي وسمعت بعدها صوت الباب فعرفت أنه غادر.

قضيت نهاري أفكر في كسب رضاه من جديد مادام الكلم الطيب له أثر بالغ في نفسه، حضرت طعامه المفضل كما حضرت الحلوى ونمت قليلًا بجانب الصغير وقُبيل وصوله هيأت نفسي بتسريحة شعر جميلة ومظهر مختلف، حين دخوله رأيت لمعة في عينه فابتسمت وأسرعت أستقبله والطفل بين يدي:

– لم يسكت إلا بقدومك، كيف حال العمل اليوم؟

– بخير.. الأمور بخير، كيف حال الصغير؟

– بخير صحة طالما أنت بخير.

دخل يبدل ملابسه ثم عاد يجلس على السفرة في انتظار الطعام فوضعت أمامه كل مايحب، كان وجهه مرتاحاً ربما لهدوء نفسي بداخله! وبعد انتهائه همس:

- سلمت يداك.

ثم قام وجلس أمام التلفاز وحمل الصغير بين يديه، سعدت كثيرًا بهذه الخطوة التي ما كانت لتحدث إلا بمبادرة مني في وصل الود واستقطاب الحب، ومضى اليوم كمثل سابقه وقد نام في غرفة الصغير مرة أخرى.

عند الفجر أيقظته للصلاة فلبى النداء وذهب للمسجد وعاد فوجدني على ماوصفت له البارحة من انتظاري له على سجادتي، قلت بصوت مسموع وهو يتجه نحو غرفة الصغير:

- هل أعد القهوة؟

- شكرًا سأكمل نومي.

ودخل مسرعًا كأنما يتهرب مني لا أدري من نقاشي أم من التقرب مني!

ما كان هناك حل للإقتراب سوى فكرة واحدة.

طلع الصبح وطلع معه يوم جديد سينم بإذن الله عن كل الخير، عطرت بيتي وهيأت طفلي وحضرت الفطور وذهبت أوقظه، قلت:

- تخيل يا حازم فقد نام الصغير طوال الليل دون أن يقلق، ولم يفعلها من قبل منذ الولادة، يبدو وأنه بدأ يتعلق بكل شيء يخصك.

انفرجت أساريره لما سمع ذلك لكنه سرعان ما قام عن مكانه متوجهًا لدورة المياه قائلًا:

- لن أستطيع تغيير مكان نومي مرة أخرى، فما ارتاح جسدي أبدًا.

لحقته قائلة:

– آسفة لم أتخيل أن نُؤرق نومك أردت أن نكون جميعًا في غرفة واحدة ويشعر بك الصغير ألا تُلاحظ أنه يهدأ دائمًا معك، يُحبك ويشعر بحنانك وحبك له وأريد أن تهنأ بأنفاسه ليلًا إنها لسعادة كبيرة حين تفتح عينك على قطعة منك.

قال:

– حضري لي القهوة.

سرعان ما أسرعت أُحضر الصغير ووضعته على الأريكة بالقرب من السُفرة كي يكون أمام عينه وقد لاحظت أنه بدأ يشتاق الطفل ويحب سماع كل ما يخصه ويحتضنه ما أن يحمله، إذًا المدخل لقلبه هو الصغير.

جلست بانتظاره وخرج ولما همّ بالجلوس بكى الصغير، قال مُتجهًا نحوه:

– سأحضره أنا لا بُد وأنه شعر بي.

ضحكت كثيرًا داخل نفسي وابتسمت وتهلل وجهي وهو يقترب منه يحمله فيسكت الصغير والحقيقة أن الصغير ما أن يحمله أي شخص يسكت لكن يبدو أن حازم اقتنع بكلامي لكثرة ما كررته ولكثرة مالمسه كلما حمل الطفل من سكوت، جاء يجلس والصغير بين يديه، قلت:

– ناولني إياه لتستطيع تناول فطورك.

قال وهو ينظر للصغير الذي يُلاعب يده في الهواء:

- طالما هدأ لا مُشكلة في بقائه.

ثم أردف:

- مع من كنتِ تتحدثين منذ قليل؟

قلت في هدوء:

- إنها أمي تُريد زيارتنا والجلوس مع الصغير لعدة أيام.

نظر نحوي بضيق شديد وسأل متعجبًا:

- عدة أيام!

- نعم، تقول أنها اشتاقته ولم تشبع منه.

لم يُعلق ولم يُرحب ولم يُعرب عن ضيقه الشديد الذي ظهر عليه، لكن ماذا لو عرف أني من دعوتها واسترسلت في طلبي وأنا أخبرها أن زوجي من دعاها بدافع الود والبر بها حتى وافقت أخيرًا، سيضطر حينها لمعاملتي بشديد اللطف في هذه الأيام وسيعتاد نوم الطفل بجانبه ويعتاد نظام الحياة لتستمر بعدها الحياة كما تُريحنا جميعًا، قال وهو يشرب قهوته:

- إذًا هي فرصة جيدة.

- بالطبع جميلة، شكرًا لأنك تُساعدني على الود مع أهلي وتُشجعني عليه.

- شكرًا لكِ أيضًا لأنكِ منحتني تلك الفرصة دون أن أسبب لكم فراغ.

عبس وجهي فجأة ولم أفهم، أردف قائلًا:

- لأني قررت الذهاب للاسكندرية بعد إلحاح من أمي، والآن وقد جاءت أمك فلن أخاف عليكم الوحدة وسأذهب فور وصول أمك.

قالها وقام مُتجهًا لغرفة النوم ليحضر نفسه للذهاب لعمله ووضع الطفل على الأريكة مرة أخرى، كنت كمن سُكب على رأسها الماء البارد، حاولت تمالك الغضب الشديد لكن ما استطعت فذهبت خلفه مُسرعة:

– هل تأتي أمي للجلوس معنا فتذهب تاركًا إياها؟

– كما تُريدين الود والراحة لأمك أريد ذلك لأمي أيضًا.

– وفيمّ قصرت أنا أو أنت مع أمك؟ ذهبنا للاسكندرية رغم تعبي لأجل رضاها، وعدنا للقاهرة بطلبٍ منها، والآن تطلبك للذهاب وتتركنا وحدنا، ألا تخاف أن يمرض الصغيرِ وأنا وحدي هنا ؟ ثم ماذا ستفعل بذهابك هناك؟

– لا شأن لكِ بشيء كما تُقررين الهدوء والسعادة لحياتك أقرر أنا الآخر.

– ماذا تقصد؟

– أنتِ من دعوتِ أمك للمجيء.

ابتلعت ريقي بصعوبة فأردف:

– ولم تُشاوريني بالأمر حتى.

قلت بتوتر:

– لكنِ أردت الود بينك وبينها خاصة وأنها ما استطاعت الجلوس معي بعد ولادتي لأنها تراك دائمًا تتعامل معها برسمية فلم تُرد ازعاجك، فأخبرتها أنك أنت من أردت مجيئها.

– ليس من حقكِ أن تقرري دون الرجوع لي، كان من الأفضل أن نتشاور ونتشارك في الأمر.

ثم خرج مُتجهًا لعمله تاركًا إياي في نوبة من الندم وقد تسرعت في اتخاذ قرار دون التريث في التفكير في توابعه، لو أخبرته بالأمس باشتياقي لأمي وارادتي لدعوتها لعدة أيام لما مانع خاصة وأن أمه تمكث عند أخته بالأيام، من الطبيعي أن يضيق صدره وقد قررت عنه ولم أشاوره، كيف لم أنتبه لذلك وكيف تسرعت في غمرة الحماس للتغيير دون أن أفكر جيدًا في كل الجوانب.

التسرع في اتخاذ القرارات حتى لو كانت بدافع التغيير والإصلاح أحيانًا يُفسدها علينا، لكن مع التريث ودراسة جميع الجوانب والتفكير الهادئ تمر الأمور على خير كما أردنا.

مرّ الوقت سريعًا وأنا أحضر الغداء لاستقبال أمي ولم أخرج من دوامة التفكير التي أغرقتني حزنًا بسبب تسرعي في الإقدام على خطوة لم أشاركه فيها وكان كمن يتحين فرصة وجود خطأ لينقض على فريسته فينتصر عليها، قُبيل العصر وصلت أمي ودخلت على عادتها الشديدة، قالت:

– أين الصغير؟

– هو نائم.

– ومتى يأتي زوجك؟

– بعد ساعة، اشتقتك كثيرًا أمي.

قالت:

– كنت أتمنى تلك الدعوة منذ قديم يا عزيزة.

خجلت منها وأنا التي لم أفعلها قط:

– كنت أخاف صدك لي يا أمي وكم تمنيت بقائك جانبي وقت ولادتي لكن لم أُرد مضايقتك بطلبي لها.

– كنت يومها أنتظر منكِ أو من زوجك قولها ولما رأيت عدولكما عن ذلك رحلت ورميت على عاتقك كل المسؤولية طالما تريدين حملها وحدك وكم حزنت حينها يا عزيزة وحزن والدك أن ابنتنا انتشلت من بيننا فما صار يربطنا بها سوى زيارة نقررها نحن دون أن تطلبها هي.

كانت الكلمات شديدة الوقع على قلبي وأنا التي عِشت طويلًا في دور الضحية وما كنت سوى الجانية في حقهم ويبدو أني فهمت الكثير من الأمور بشكل خاطئ ومن جانب واحد وهو كوني ضعيفة فأصبحت أرى كل تُصرف من أي شخص ظلمًا لي ولم أعترف يومًا أنه ضعفًا مني أو تقصير مني، أردفت قائلة:

– حين اتصلتِ بي تهلل وجهي فرحة بسؤالك وحين اتصلتِ صباح اليوم لم تكد الفرحة تسعني فجئت لرؤية ابنتي التي اشتقتها واشتقت الجلوس معها.

بكيت رغمًا عني وارتميت في حضنها أبكي قالت بخوف:

– مابكِ؟

قلت:

– هو الشوق يخالطه الندم على الفهم الخاطئ يا أمي.

قالت:

– لا ندم بين الأم وابنتها، ماذا أعددتِ لنا من غداء؟

– أعددت الرقاق ومحشو الفلفل والكوسة.

كنت أعلم أنها أكلتها المفضلة وأن الإنسان وقتما يتذوق الطعام الذي يُحب يسعد كثيرًا فتهنأ نفسه، أعلن الصغير عن استيقاظه فذهبت بشوق بالغ تحتضنه وتعتني بنظافته وحمله، بينما توجهت لمطبخي للانتهاء من كل شيء حتى إذا ما وصل حازم يكون كل شيء جاهز، ربما أحب الجلوس بيننا وعدل عن الذهاب للاسكندرية وقد أعددت حلوى الكراميل التي يُحبها خصيصًا له.

وأخيرًا دقت الخامسة ودقّ معها قلبي كمن تنتظر نتيجة الامتحان، دخل فألقى السلام ثم دخل مُباشرة نحو الغرفة، قالت أمي وقد أصيبت بحرج:

– ماذا هُناك؟

قلت:

– يبدو وأنه حدث معه مشكلة ما في عمله.

قالت مستريحة:

– أعانه الله على كدر الحياة بالخارج.

ثم أشارت لي:

– اذهبي خلفه واهتمي بضيقه كيلا يزداد ضيقًا من عدم اهتمامك.

آه يا أمي لو تعلمين ما في الأمر لضاقت بكِ الحياة لما تعانيه ابنتك، توجهت نحوه وأغلقت الباب من خلفي، قلت:

– ماذا تفعل؟

قال:

– أعد ملابسي لأجلس هناك لعدة أيام.

قلت بحزن:

– وتبتعد عن ابنك وعني لعدة أيام وفي يدك البقاء!

– أنتِ من بدأتِ.

– وها أنت أيضًا اتخذت القرار وحدك دون النظر لاحتياجنا إليك.

أدار وجهه ووضع يده داخل جيبه قائلًا:

– أنا رجل يا عزيزة أقرر ما يحلو لي أما أنتِ فلا يصح أن تقرري دون العودة لي.

– حسبت أني أعد لك مفاجأة لأنك تحب تقدير الأمهات فقدرت أمي بدعوة لبيتي ولم يسبق أن طلبت مني ذلك أبدًا.

لم يُبالي بي ثم أغلق الحقيبة وقال:

– سأذهب بعد الغداء تقديرًا لوجودها.

خرجت أحضر الطعام وبداخلي من الحزن أطنان وأنا أراه يُعاند لأجل

العند والانتصار لا أكثر، لا أدري هل كان الخطأ جسيماً حتى هذا الحد أم أنه يتمادى، سئمت كل شيء وما عُدت أتحمل طريقته تلك، جلسنا نتناول الغداء قالت أمي:

– كيف حال والدتك وأختك؟

قال:

– بخير.

– أبلغهم سلامي أعانهم الله.

ثم أردفت لما لم تجد منه رد:

– وكيف حال العمل؟

– بخير.

أصيبت أمي بالضيق من عدم اهتمامه بها وبالإجابات المقتضبة عليها، فقالت:

– سلمت يدك يا عزيزة الطعام لذيذ.

قلت ولم أكن قد تناولت شيء:

– بالهناء والصحة أمي.

ثم سمعت بكاء الصغير فاستغلت ذلك وقامت مُسرعة تحمله فلم يُعلق وكان بالغ البرود، ثم انتهى وقام هو الآخر، اقتربت أمي تسألني:

– هل ثمة مشكلة بينكما؟

- لا لا أبدًا.

ثم حملت الأطباق أدخلها قائلة:

- سأعد الشاي حالًا.

جلست أمي بالصغير وهي تشعر بشيء ما بيننا وغبت أنا بالمطبخ أعد الشاي وأرص الحلوى في الأطباق، ثم وضعت الصينية وذهبت أنادي حازم الذي كان بالغرفة، خرج حينها يحمل الحقيبة فقامت أمي عن مكانها:

- إلى أين يا بُني؟

قال دون النظر نحوها:

- إلى الاسكندرية.

قالت متعجبة:

- ألم تأتوا منها بالأمس؟

قال وهو يفتح الباب:

- وسأذهب الآن لقضاء عدة أيام معهم لتأخذي راحتك مع عزيزة.

قالت أمي بحسم:

- حسنا ستأتي عزيزة لبيتنا ووقت تقرر العودة مرحبًا بك عندنا لأخذها.

ثم قالت موجهة الحديث لي:

- أعدي ملابسك وملابس الصغير فلن أستطيع الذهاب وتركك وحدك هنا.

قال ناظرًا نحوي:

– لو خرجتِ من بيتي الآن وحدك فلا مكان لكِ فيه مرة أخرى.

كانت كلمته فوق كل تصوراتي ولم أتخيل يومًا أن يحط من قدري بتلك الطريقة أمام أهلي وأنا التي أرفع من شأنه دائمًا أمام الجميع، قلت وقد انهمرت دموعي:

– هكذا بسهولة يا حازم؟

لكنه لم يأبه لقولي وأغلق الباب خلفه ورحل، جلست أرض الشقة التي ما وجدت فيها سوى كل الهوان رغم كل المحاولات وبكيت حتى انتحبت، وضعت أمي الصغير على الأريكة وبهدوء شديد قالت:

– انهضي يا عزيزة فلا أحد يستحق دموعك.

قُلت وأنا أشهق باكية:

– لكنه والد ذلك الصغير الذي لم يفقه بعد شيئًا عن الحياة.

قالت بحسم:

– انهضي يابنتي .

– ربما لم يقصد يا أمي، ربما ضغوط العمل، ربما....

قامت أمي وتوجهت نحو الغرفة التي قد وضعت بها حقيبتها قائلة:

– المرحلة الأصعب في أي علاقة هي حين يوصلك شريك حياتك حد أن تُقدمي مُبررات لكل تصرفاته الهوجاء، هي حين يُجبرك قلبك على الإكمال في علاقة تعرفين منذ البداية أنكِ الطرف المُضحَى به دائمًا عند أي خلاف.

بكيت أكثر وأنا أتذكر كل شيء قالت أمي:

- لن أتركك هذه المرة يا عزيزة فلو تركتك له لاحتقرك طوال العمر وزادك إهانة، أهلك أولًا يابنتي ليعلم أن لكِ من يشد عضدك فلا يستغل تجردك من الأهل فيزداد احتقارًا لكِ.

ثم حملت الصبي الباكي لتوتر الجو وهو الذي يشعر بكل شيء رغم حداثته، وراحت تضع ملابسه وبعض ملابسي في حقيبة ولا زلت في مكاني كأنما خارت كل قوايّ فما استطعت النهوض من جديد وقد تلبسني الحزن والوجع لكل ذكرى وكل موقف حاولت تخطيه فظلت بقاياه عالقة لتحل الآن كلها فأبكيها كما لم أبكِ من قبل، اتصلت بأبي فكان بعد ساعة أسفل العمارة ووقفت أمام الباب تحمل الصغير الباكي ريثما أرتدي عباءتي وأخرج لشدة ما كرهت وجودي داخل تلك الشقة التي يحزن من يدخلها بسبب صاحبها الذي لا يكن لأحد أي تقدير مهما كان حجمه، سمعت الجارة صوت الصبي وخرجت وقتما خرجت أنا وقد انتهيت من وداع تلك الشقة التي ربما لن أعود لها مرة أخرى وقد تسلم أهلي زمام الأمور بعدما فشلت في كل شيء، قالت الجارة:

- إلى أين يا عزيزة؟

قلت والدموع تزداد انهمارًا لفرط الذكري والحزن:

- ماعاد المكان مُتاحًا لي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، اهدئي عزيزتي فخروجك من بيتك لن يزيد

الأمور سوى تعقيدًا، هو مكانك ومكان طفلك ولا يجب تركه هكذا.

قاطعتها أمي:

– حين تتفاقم الأمور يجب أن يكون هناك وقفة شديدة ليتعلم أنها لن تظل طوال حياتها مُهانة، قضيت معها ساعتين فقط فرأيت مالم أتحمله عليها وهل أنجبتها وعززتها ببيتي كي يُعاملها ككرسي لا فائدة له في بيته.

قالت الجارة:

– إهدئي يا خالتي، ماذا حدث لكل هذا؟ نحن بجوارهم لفترة طويلة لم نسمع عنهم إلا كل خير، لم نسمع لهم صوتًا ولم نجد بينهم سوى الود.

تعجبت قولها لكنها ضغطت على يدي وأصرت أن تستقبلنا لبعض الوقت في شقتها، صعد أبي لما تأخرنا فاستقبله الجار بصدر رحب ولم يخبره شيئًا عما كان، جلسنا وأمي مُستشيطة من الغضب من تعامل حازم معها، وأعدت الجارة الليمون لنهدأ بينما كنتُ مسترسلة في البكاء ولا أعلم ماذا حلّ بي وكأن ضعف السنين وضعف الحياة بأكملها حطّ الآن بقلبي ويبدو أن كثرة التحمل التي مررت بها جعلتني أقع أرضًا دون استطاعة النهوض مرة أخرى، قالت الجارة:

– في كل البيوت يحدث الخلاف ولا يصح مع أي خلاف الخروج من بيوتنا وإلا ما أصبحت حياة.

قالت أمي:

– لكنه أهان أهلها، يتركها للذهاب لأمه في محافظة أخرى فما المانع لو جاءت معي أليس من حقي أن أهنأ بابنتي!

– ليس الأمر كذلك يا خالة لكن حالة عزيزة لا تدل على شيء سوى خلاف وقع بينهم الساعة ومع تلك الأمور تتفاقم المشكلات لذا لا بُد من التريث والهدوء في اتخاذ القرارات وألا نتسرع كيلا نندم.

كانت جُملتها الأخيرة ضغطًا كبيرًا على جرح غائر، إنه التسرع في اتخاذ القرارات والتسرع في تمني رؤية النتائج، هذا ما وقعت فيه فقامت الدنيا ولم تقعد، تسرعت برؤية نتائج مُبهرة، أعلم أني وحدي من يحاول إصلاح الحياة دون أن يُقدم هو شيء سوى الخذلان لكن أريد المحاولة قبل اتخاذ قرار مصيريّ علّه يتغير فأكسب حياتي وحياة ابني في جو يسوده الحب والألفة، أحترم انفعال أمي لأنها لا تقبل على ابنتها الإهانة فكما لم يحترم أهلي فكيف له أن يحترمني هكذا قالت أمي للجارة وهي تقص عليها ما حدث، قالت الجارة:

– ومع كل هذا لا أفضل ذهابها أبدًا.

قالت أمي مُنتفضة من مكانها:

– لكنِ لن أقبل بترك ابنتي هنا، لها أهل وليست وحيدة، ماذنب الطفل أن يعيش في جو مُتوتر علّ زوجها ببعدها يعرف قدرها.

ذهبنا ولم أكن سوى تابعة لهم وقد قصت أمي على أبي كل شيء فثار غضبه ولم يهدأ وتوعد ولم يأبه لشيء، قال عند وصولنا لبيتنا الكبير:

– لا بد من وقفة حاسمة ليعلم أنها كريمة بنت كرام ولن تعود إليه مرة أخرى مادام لا يعرف قدرها ولا قدر أهلها .

ياالله! زادت الأمور تعقيدًا ليتني ما أقدمت على تلك الخطوة، دخلت لغرفتي التي تركتها منذ سنة واحدة، كانت مُرتبة وكأني تركتها صباحًا يبدو أن أمي تعتني بها دائمًا وربما تقضي فيها بعض الوقت، لم تدخل أمي خلفي بل حملت الصبي إلى غرفتها وقد كان في نومة هانئة في حضنها، وارتميت على سريري أبكي من جديد وماذا سأفعل سوى البكاء وقد عدت لنقطة الصفر من جديد، وما أصبح لي سوى الرضوخ لأمر أهلي وإلا ما لاقيت في حياتي سوى الإهانة، تذكرت كلام جارتي وإشارتها في الضغط على يدي رُبما قصدت بذلك ألا أتحدث عن كل المشاكل السابقة كيلا تتفاقم الأمور وأن أتحدث عنه باللين علّ الجو يهدأ والقلوب تستكين.

دخل والدي لم يجلس وظلّ واقفًا كانت عادته قاسية وشديدة معي فانتابني الخوف أكثر، اعتدلت في جلستي فقال:

– كيف تسمحين له بالذهاب وتركك؟ ثم كيف يُخرج من جوفه كلمة كتلك التي قالها مُعلنًا عدم عودتك بسهولة؟

لم يكن لدي من إجابة بل وأي إجابة ستنصفني، أردف:

– لم يقم بدعوتنا بتاتًا منذ زواجك ولولا مجيئنا كل فترة لزيارتك لما كنا لنعرف أخبارك، شجعك على القطيعة والبعد فابتعدتي مُفضلة إياه عنا.

تساقطت دموعي في هدوء فلم يكن وقتًا مناسبًا للعتاب وزيادة الأحمال،

لكن كيف لي أن أنسى أن هذا طبعهم وهذا مادفعني لتحمل كل شيء بغية عدم العودة هنا مرة أخرى، خرج أبى بعدما مزق ماتبقى مني بكلماته، فعُدت أكمل بكائي على ما كان وما سيكون.

بعد نصف الساعة جاءت أمي تحمل الصغير يبكي جائعًا ناولتني إياه ولاحظت عدم تحركي من مكاني وعدم تبديل ملابسي، قالت:

- هل يستحق كل هذا؟

حاولت الهدوء:

- لم أرَ منه على مدار السنة سوى الخير.

- لا أصدقك يا عزيزة، أعرف نظراتك الهاربة حين تكذبين، لمّ تُبررين أفعاله ولا تقولين الحقيقة!

كان الصغير يأبى الرضاعة ويبكي كلما اقترب من صدري هو يشعرني وحزين مني ومن أجلي، قالت أمي:

- من حق ابنك أن يعيش في هدوء وفي جو نفسي سليم، لن يُصبح الأفضل لو عاش بين أم مُهانة وأب عديم التقدير، من تقدير الرجل لزوجته أن يحترم أهلها، لو كان رجلًا بحق لما قال كلمته الأخيرة بذاك العناد الذي كان يُحيط به، كان يتحداني رغم أني لم أقصد سوى مجيئك عندي كما ذهب هو، فعاندني وعاملك كجارية وذهب، هل هذا يستحق منكِ الحزن والبكاء؟ هل يستحق أن يُصبح طفلك على تلك الحالة بسبب حزنك عليهِ؟

كنت ضعيفة إلى الحد الذي لا إجابة معه، لم أكن أتحمل المزيد من

العتاب ولا النقاش كنت أريد الجلوس إلى نفسي فقط لأفكر، أفكر بهدوء دون ضغوط متوالية، شعرت بسكوتي ونفور وجهي غاضبًا حزينًا من كل العتاب، قالت بود:

– سأعد لكِ الحِلبة لتدر اللبن في صدرك.

ثم مشت قليلًا لتخرج من الغرفة قائلة:

– سنذهب بعد ساعة لطبيب الأطفال في البناية المجاورة ليحدد حليبًا صناعيًا للطفل، في مثل حالتك تلك من الأفضل ألا يشرب الطفل منكِ.

ثم خرجت وأغلقت الباب من خلفها وقد عُدت من جديد لقراراتهم دون العودة لرأيي، وبأوامرهم ونقاشاتهم دون الشعور لما يجول بخاطري، كانوا نقطة البداية في ضعفي بإملاء الأوامر دون نقاش واتهامي بالضعيفة دائمًا التي لا تُحسن اتخاذ القرار فما حاولت يومًا اثبات العكس لهم، توقفت لحظة عن البكاء وأنا أسأل نفسي، تُرى لمّ لم أحاول إثبات العكس؟ لمّ لا أناقش وأثبت وجهة نظري؟ لمّ أسمع وأبكي دون دفاع؟، لكن أمي هي من صنعت هذا الحاجز بعدم التقرب والتودد لي بمصاحبتي، كنت دائمًا أتمناها صديقة خاصة وليس لي أخت تُصاحبني لتهون عليّ مُر الحياة، كانت دائمًا شديدة الجدية وكان أبي أشد منها فصار إخواني مثلهما لكنِ الوحيدة التي تأثرت وكنت مختلفة عنهم.

لم يهدأ الصغير فحملته وذهبت أُحممه علّه يهدأ قليلًا لكن لم يحدث أن هدأ كما لم يرضع مُعلنًا التمرد أو لعله الاضراب حزنًا على أمه وربما من أمه التي

عادت أسوأ من الأول، ذهبنا للطبيب فلم يكن بالصغير شيئًا من مرض لكنه الجوع فقط، كتب له حليبًا ولما عُدنا البيت أعدته أمي له وفور أن نام حملته لغرفتها وطلبت مني المبيت وحدي هذه الليلة، دخلت غرفتي حزينة وقد انتشلوه من بين حضني وأُملي عليّ أمر جديد بالمبيت وحدي، لكن في غمرة بكائي وقعت عيني على الآية القرآنية التي عُلقت في برواز كبير أعلى سريري قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

انتفضت من حزني فلم أقرب الدعاء ولا الصلاة منذ العصر وقد ألهاني الشيطان عن كل شيء ليحيط الحزن بقلبي ويتمكن مني وهذا ماكان، أسرعت أتحمم كأني أجدد خلايا جسدي وروحي بطهارة الماء، وتناولت سجادتي وارتديت لباسي الذي أحب للصلاة ورحت أصلي ما فاتني ثم صليت ركعتين قضاء الحاجة ليفرج الله همي ويمسح على قلبي بالهدوء والسكينة، تناولت بعدها مصحفي واسترسلت في القراءة حتى هدأت نفسي وسعدت، واستلقيت على فراشي في هدوء وسكينة وأنا أردد:

- شكرًا لصنيعك ومنحتك أمي.

كدت أحكم على الأمور بحماقة من جديد منذ قليل حين أخذت الطفل لتترك لي مزيدًا من الراحة اعتقدت أنها تحرمني منه، ويبدو أن أغلب أحكامي على أمي كانت هكذا أراها بعين المظلومة منها بينما هي في الحقيقة تُقدم لي يد العون وأنا الغبية التي لا تفهم.

أعلن الصباح عن حركة لطيفة بالمنزل يُلاعب إخواني الصغير وقد بدت

نفسه سعيدة بجو أُسري افتقده، يحمله أبي في حنان بالغ لم نعتده نحونا لكنه كان كالطفل مع أبي، أرضعته أمي من حليبه الصناعي ونظفته، انضممت إليهم مُعلنة خلع وشاح الحزن والضعف، مُعلنة أن أنطلق من جديد من هُنا من الأساس، أن أصبح أقوى بينهم ولي وجهة نظر معهم، جلست بجانب أبي وكان الجميع يتعجب سكوني وتبدل الحال الذي تبدل بعد جلسة طويلة مع الله ثم جلسة سوية مع النفس لتقويمها وجعلها ترى الأمور بنضج وحقيقة، قال أبي وقد اعترى الضيق وجهه:

- هل اتصل بكِ؟

لم أكن مستعدة للحديث في الموضوع نفسه، فقلت بهدوء:

- لم أهتم لرؤية هاتفي، سعادتي بالجلوس معكم هي ماتشغلني.

تعجب قولي فأردفت بابتسامة:

- الصغير مُستكين بين يديك أبي يبدو وأنه أحبك.

انفرجت أساريره وتخلى عن حزنه قائلًا:

- نمت الليل كاملًا في حضنه واستيقظت صباحًا على صوته.

قالت أمي وهي قادمة من المطبخ تضع الأطباق على السفرة:

- هيا لنتناول الفطور، أعددت لكِ يا عزيزة كل ماتحبين.

كانت الكلمة جميلة جدًا لروحي، ذهبت نحوها أنظر للسفرة التي رُصت عليها أطباق مُختلفة الأصناف المُحببة لنفسي ثم بحركة عفوية احتضنت أمي،

تعجبت فضحكت ثم تعجبت وضحكت من جديد تنظر للجميع، وانضم الجميع نحو السُفرة وكان الصغير هادئًا على الأريكة، قال أخي:

– هل ستجلسين هنا كثيرًا؟

لكزته أمي في حركة واضحة فقال موضحًا:

– أحب بقاء الطفل كثيرًا فقد أضفى على بيتنا جوًا رائعًا بنظراته البريئة وغمغماته الهادئة.

دقّ الهاتف فذهب أبي يرد، وسرعان ماتبدلت معالم وجهه، ثم قال:

– سأحضر حالًا.

ثم أغلق الهاتف وذهب يُبدل ملابسه سألته أمي:

– ماذا حدث؟

قال:

– توفي حسين.

كم تألمنا جميعًا لذلك وهو الصديق المقرب لوالدي وملاذه الحلو في الحياة حين تضيق به السُبل، هو نفسه الوسيط في خطبتي لحازم فهو ابن عم والده وقد رشحه عريسًا لي، اعتراني بعض الخوف من لقاء أبي بحازم هناك، وضعت يدي على قلبي من تطور الأمور للأسوأ وقد جاء اللقاء بينهما سريعًا بما لم أحسب له لحظة حساب، قلت في نفسي فور خروج أبي:

– تُرى ماذا سيحدث في اللقاء الأول بعد ماحدث بالأمس؟

قام اخواني يستعدون للذهاب لصلاة الجمعة ثم جاء أكبرهم مُقتربًا مني:

– اشتقنا وجودك عزيزة؟

ابتسمت وأنا أردد:

– اشتقتك كثيرًا وليتني جئت منذ قديم.

قال يهمس:

– ألا زلتِ حزينة مما حدث بيننا قُبيل زواجك من خلاف.

– هي خلافات اخوة لا أكثر، لا أحزن منكم أبدًا.

قال أخي الأصغر:

– أتعلمين يا عزيزة اكتشفت في بعدك أني أحبك كثيرًا وأنه مع بُعد من اعتدنا وجوده نعرف جيدًا قيمته وكم كنا نتحامل عليه فيتحملنا.

ابتسمت وأنا أُحدث قلبي تُرى هل يشعر حازم بذلك فيتبدل الهجر والقسوة بالوصل والحنان، لكن لم يُجبني قلبي سوى بدقاتٍ مرتجفة لا تنم عن أي راحة فعرفت أن صِدامًا ما سيحدث مع أبي كما حدث مع أمي.

كانت أمي تعلم ما يجول بخاطري قالت وهي تُنبهني:

– الشاي بالنعناع مع البسكوت المخبوز بالبيت له مذاق خاص في البلكونة يا عزيزة.

قُلت:

– كم اشتقت ذلك يا أمي.

قالت بعتابٍ:

- لكنكِ كنتِ دائمًا تُفضلين العُزلة والجلوس وحدك بغرفتك.

لاحت دمعة في عيني وأنا أرد بحزن تتبعه رجفة في يداي:

- كنتُ أخاف.

تعجبت مُتسائلة:

- من ماذا؟

- من أبي!

- لمّ؟

عدت للخلف قليلًا وللذكرى التي نشأت عليها:

- منذ نشأة أظافري وأبي لا يكف عن الصراخ والتوبيخ لي أينما رآني، حتى أصبحت أتوارى عن عينه كيلا يصب في أذني كل صراخ وعتاب لما كان وما سيكون، كنت أهرب دائمًا من كل مكان هو فيه، حتى من حضنك لأني أخاف اتهامه لي بالضعف كما كان يقول دائمًا، حتى تعدى الأمر حد أبي ووصل إلى الخوف منكِ أيضًا.

دمعت عيون أمي وهي تُمسك بيدي تسألني الفضفضة عن المزيد، قلت باكية ولم أستطع أن أتمالك تلك الذكريات التي ما فارقتني يوما:

- كنت أتمنى بعد كل مرة يُوبخني فيها أبي وأدخل لغرفتي باكية أن تتبعيني وتحتضني ماتبقى مني لكن لم يحدث أن فعلتها أبدًا.

كادت تهمس بشيء لكنِ قاطعتها:

– كنتِ تظنين أن بحنانك عليّ إفساد لأخلاقي وأن ذلك سيجعلني فتاة مُدللة لا تتحمل شيء.

ثم بكيت وبكت هي الأخرى تحتضني ولم تكن تتوقع ما يجول بداخلي طوال سنوات مضت، قلت وأنا أشهق باكية:

– لو تعلمين يا أمي ماتحملته طوال حياتي منكم من تجاهل وطوال سنة كاملة من كل شيء لبكيتي لحالي أشد البكاء.

قالت بخوف:

– ماذا فعل بكِ؟

– زادني حزنا وضعفًا وتحملًا لكل ما لا أطيق كأنه يُكمل ما لمسه في علاقتكم معي وعرف أني لن أشكو أبدًا.

قالت تحتضنني من جديد:

– لم يكن قصدنا يومًا ذلك كنا نعتقد أننا نُربيكِ على الشدة لتصبحي قوية.

– لم تكن الشدة يومًا هي الحل، اللين ولا أفضل من اللين في كل العلاقات، حتى لو كان للشدة ضرورة فلا يجب أن تكون هي الأساس على الدوام بل اللين هو أساس كل علاقة ناجحة وسوية.

قالت أمي:

– مُحقة أنتِ يا عزيزة كان الخطأ الأول خطؤنا لكن...

ثم ابتعدت عن حضني وهي تضع عينها أمام عيني:

– كنتِ أيضًا مُخطئة بعدم الحديث عن ذلك.

رجفت يداي من جديد:

– كنت خائفة أن أُعاقب بمزيد من القسوة.

احتضنتي بقوة وبحنان غامر لم يسبق أن تذوقته منها في حياتي وهي تهمس:

– كان الخوف دائمًا هو الذي يقف بيني وبينك تخافين الاقتراب وتبتعدي وأبتعد أنا رغم شوقي للاقتراب.

ثم قالت:

– آسفة يا عزيزة لو تعلمين حُبك بقلبي وقلب والدك لنسيتي كل ما كان.

كيف لي نسيان عُمر بأكمله ربما أخطأت بالخوف الكثير لكنه كان نتيجة لتربية خاطئة، تناولت الشاي ولازالت يدي ترتجف قالت أمي وقد انتبهت:

– هل يداكِ تُؤلمك؟

قلت دون النظر نحوها وقد اختنق صوتي بالبكاء من جديد:

– هذه الرجفة معي منذ الصغر يا أمي كلما خفت أو حزنت أصابتني دون توقف.

هي حالة انتابتني منذ الصغر كانت خفيفة بالبداية ثم ازدادت، شردت

بعيدًا وتذكرت يوم طلبت مني أمي حمل الصينية بما عليها من أكواب زجاجية ودورق من العصير لتقديمه لضيوف أبي، فبينما أمشي تجاه الطاولة إذ تعثرت قدمي فأفلتت الصينية من يدي لينكسر كل شيء، عنفني والدي كثيرًا واتهمني بالفاشلة أمام الجميع فركضت يومها نحو غرفتي باكية ويداي ترتعش بشدة في انتظار مواساة أمي لكنها لم تأتِ لانشغالها بأمور أخرى.

تذكرت أيضًا ذاك المساء الممطر وقد أعجبتني فكرة الكتابة على زجاج النافذة المغطاة بحبات المطر المتكاثفة، فتركت الكتاب من يدي وبدأت بتنفيذ ما أحب، فبينما أنا كذلك اذ دخلت أمي وبدأت برفع صوتها خوفًا عليّ أن أُصاب بالزكام فأتى والدي واتهمني بالفاشلة التي تركت مذاكرتها وفعلت فعلًا خاطئًا، وقرر معاقبتي على فِعلتي هذه بإغلاق الأنوار في غُرفتي وغلق بابها بالمفتاح وعدم الخروج منها حتى الصباح، بكيت يومها كثيرًا ويداي ترتعش بشدة من الخوف.

مرت سنواتٍ طوال لم يتغير والدي ولم يفهم أن معاقبته لي بهذه الطريقة لم تدفعني نحو الفشل فحسب لكنها جعلت مني إنسانة مريضة لا تقوى على التمسك بأحلامها ولا حتى الأشياء لأني وبكل بساطة يداي ترتعشان.

العقاب الخاطئ المُتكرر قد يُعرض الأبناء للخطر فلا نستطيع إصلاح ماتم إفساده أبدًا.

قالت أمي وقد لاحظت شرودي ودموعي التي انهمرت رغمًا عني:

– قد برد الشاي يا عزيزة، لمّ عُدت للبكاء؟ لا تُقطعي نياط قلبي أرجوكِ.

بكى الصغير فذهبت إليه مُسرعة أحمله وقد اشتقت كثيرًا إليه ولقلة رضاعته الطبيعية بالأمس آلمني صدري وأصبح كالحجر بعدما تكتّل الحليب فيه، لكن بمجرد احتضان ابني وجدت الحليب وقد انهمر على عباءتي قالت أمي:

- قد حنّ صدرك للصغير.

ابتسمت فقالت:

- لكن ارضعيه فقط ان تحسنت مزاجيتك أما دون ذلك فلا تُرضعيه حليب الحزن.

ابتسمت قائلة:

- ارتاحت نفسي بالجلوس معكِ يا أمي.

جاءت تحتضني من جديد علّها تُحاول تعويضي عن كل ماكان أو بالأحرى كل ما لم يكن، كنت أنوى الدخول لغرفتي لكن قالت أمي:

- لا تدخلي وتعزلي نفسك من جديد أشتاق جلوسك معي.

قالتها وسعدت بها وكنت لأسعد أكثر لو قالتها قديمًا لكن لا بكاء على اللبن المسكوب، سأحاول المُحافظة على ما تبقى مني والنهوض من جديد، سأعدل علاقتي بأهلي سأعاتب الجميع لأدفن كل خلاف وكل ذكرى حزينة، ها هي أمي لما عرفت ما في نفسي احتوتني بل واعتذرت مني وندمت على مُعاملة خاطئة تسببت في ندوب كثيرة، ياليت الفرصة تسمح لي بجلسة مثلها مع أبي لكن هل يتحمل كلامي؟ هل يعترف بما كان؟ لكن في هذا التوقيت لن يكون من المُناسب حديثه وقد فقد رفيق حياته.

دقّ الهاتف فكانت الجارة، قالت بعد السلام:

- هل حادثك؟

- لا.

- هل حادثته؟

- مُستحيل.

قالت:

- الحمد لله خفت أن تفعليها.

تعجبت من حديثها، سألتها:

- عجيب حالك، بالأمس توصيني بعدم الحديث عن اساءاته المتكررة معي واليوم تحمدين الله أني لم أحادثه.

قالت بهدوء:

- حين قُلت هذا بالأمس وأوصيتك به كنت أنصح عزيزة القديمة الضعيفة التي ستمتثل بالأمر وتجلس دون ذهاب وتتركها أمها القاسية وتذهب، لكن لما ذهبتِ تأكدت أنكِ قوية وقد تغيرتِ وبالتالي ستتبدل حياتك كثيرًا وعرفت أن أهلكِ بحديثهم سيأخذون حقك كما أني لم أرد أن أتحدث عن الماضي في وقت الغضب الشديد لأن الأثر سيتضاعف ويزداد الأمر سوءًا، كنت منذ البداية أريد انتقالك لبيت أهلك والاحتماء خلف ظهورهم ليعرف أن لكِ ظهرًا تختبئين خلفه ويعلم أن أهلكِ هم حمايتك.

هدأت نفسي:

- إذًا أنا على طريق الصواب.

- الحمد لله أنكِ الآن معهم، وأعتقد أن لكِ معزة واضحة وخوفًا جمًا عليكِ منهم وإلا لما انتفضت أمك اثر ماحدث

ثم أردفت:

- الأهم يا عزيزة أنكِ تغيرتِ، لأجلك أولًا ولأجل طفلك ولأجل أن يرتاح قلب أمك.

- شكرًا عزيزتي على كل الحب واللطف منكِ.

أغلقت معها الهاتف وقد ارتاحت نفسي أكثر مما سبق وهدأت وأرضعت الصغير ولاعبته حتى نام ونمت جواره بعد الحاح شديد من أمي أن أرتاح بعد كل التعب الذي لاقيته وكان من المفترض أن أرتاح، بعد العصر بساعة عاد والدي الذي حضر مراسم الدفن والعزاء، كان الحزن يكسوه ودخل مُباشرة نحو غرفته، كان الجميع يعلم ما يمر به فجلسوا ولم يقربوا الغرفة، بينما كنت جالسة جوار أمي على الأريكة والصغير في حجرها فنهضت للحاق به، قالت أمي:

- لا تذهبي هو حزين وقد دخل ليختلي بنفسه مع حزنه على صديقه وحتمًا لا يُريد أحد خاصة وأن حسين مرض فجأة وجاءت وفاته بعد معاناتاه وتراجع حالته الصحية.

قلت مُعاتبة:

– الحزين هو أكثر الناس احتياجًا للمواساة يا أمي، كلما هرب بحزنه وحيدًا كلما زاد العبء داخله بينما وقتما يتقاسمه مع من يواسيه ويهون الكثير عليه يصغر في عينه ويشعر بالربت على قلبه فتهدأ نفسه.

فهمت ما أرمي إليه وهذا بالفعل ما كنت أحتاج إليه في كل مرة أختلي حزينة، ذهبت وطرقت بابه ثم دخلت وبيدي كوبًا من الماء وفوطة مُبللة بماء بارد، قلت وأنا أناولها إياه:

– الجو في الخارج شديد الحرارة هذه الفوطة ستلطف شعورك، وهذا الماء سيلطف جوفك.

قال وهو يُمدد قدمه على السرير والحزن لا يترك ملامحه:

– وماذا يُلطف قلبي بعد صديق العمر ورفيق الدرب، حامل الهموم عني كان يحمل نصف حزني وأحمل نصفه الآخر، يحمل بعض الفرحة ويترك لي كل الفرحة، أهدتني الحياة إياه وسط عتمة كبيرة عانيتها، كان بلسم الحياة بعد كثير عناء.

ثم سكت ولاحت في عينه دمعة، جلست بجانبه أربت على يده مواسية، أردف:

– يوم مات أبي في حادث جرّار وهو يعمل في الأراضي الزراعية وداسه الجرار وجدت نفسي مسؤولًا عن أسرة بأكملها أنا كبيرهم الذي لم يتخط عُمره العاشرة ومطلوب مني الحصول على أجرة يومية لنأكل فقط، اعتدت الشدة والقسوة على كل شيء لفرط ماأوذيت من أصحاب الأعمال، ولما

قررت ترك المدرسة للعمل كل النهار بدلًا من نصفه فقط كان أول من نهاني عن ذلك صديقي وصار يُخبر أهله بالخروج للعب وهو يعمل جانبي جنبًا لجنب ثم يُناولني ما تحصل عليه من أجرة كيلا أترك دراستي، تخصصنا في تخصص واحد واعتدلت الحياة بأسرتي مع عمل أمي للقيام على طلبات أخواتي، حتى تزوجوا جميعًا وابتعدوا تمامًا ولم يسألوا عن أخيهم الذي ذاق المُر ليُزوجهم رغم كل ما أعطاهم من حنان ولين فنسوه وانشغلوا في الحياة بعدما ماتت أمي.

امتلأت عينه بالدموع فمسح وجهه وجبهته بالفوطة وشرب رشفة من الماء ثم قال:

– هو من كان بجانبي رغم ذهاب الجميع ولولاه بعد الله لَمُت من الحزن على تخلي الجميع ونسيانهم لي رغم محاولاتي الدائمة في الوصل والاتصال لكنهم انشغلوا كثيرًا لدرجة أنهم ربما غيروا أرقامهم ولم يُخبروني، لدرجة أن إحداهن انتقلت من شقتها ولم أعرف بمكانها الجديد، كان يربت على قلبي ويُهون الحياة في عيني.

ثم سكت قليلًا وهو ينظر نحوي وقد كنت شديدة الحزن لما أسمعه للمرة الأولى بحياتي، أردف بعدها:

– حين تزوجت وأنجبتكِ أولًا كان كل خوفي أن أغمركِ حنانًا ولينًا فتصبحي كعماتك، لكن رغم مُعاملتي لكِ بشدة أصبحتِ مثلهن في الهجر والبعد يا عزيزة.

ثم بكى وكانت المرة الأولى منذ وعيت الحياة التي أرى فيها والدي يبكي، لا يبكي صديقه فحسب هو يبكي جفائي، يعتقد أني الجانية ولم أكن سوى ضحية لقسوته، لكنه الآخر كان ضحية لما مر به وفتك بقلبه، حاولت التخفيف دون عتاب كثير:

– والله يا أبي ما ابتعدت إلا خوفًا من شِدتك الدائمة عليّ، غاليت في حنانك ولينك معهن وفرطت كل التفريط معي وأنا الفتاة التي لا تحتاج سوى الحنان واللين.

تعجب قولي ولم يتوقع وكان يظن أني وحدي المُخطئة لكن مع العتاب والحديث عرف أنه أخطأ للمرة الثانية، فهذا ما يفعله العتاب يجعلنا نرى الأمور واضحة ونفهمها من منظورين وليس منظور واحد، قال:

– ولمّ لم تتحدثي؟

قلت:

– خفت عقابك.

ثم بكيت فاحتضنني ولم أعلم أو أتذكر أنه فعلها من قبل، لكن كنت أحتاج للسكون في حضنه غامر الحنان، قلت:

– أنت سندي وحمايتي يا أبي وبدونك أنا ضعيفة.

قال مُنتفضًا يمسح دموعه:

– لا عاش من أهانك، وهل أسميتك عزيزة حتى يأتي من يُهينك!

ثم قال:

– رحمك الله يا حسين الآن وقد سعدت بحضنك نويت الذهاب لاخباره عن ذلك لكن تذكرت أنه مات اليوم.

ربت على كتفه وأنا أُردد:

– كنت دائمًا أتمنى لو تكون صديقي المقرب فكما تعلم لم أُكون يومًا صداقات لأن الجميع كان يبتعد عن فتاة ضعيفة لا تقوى على أن تسند أحد.

قال أبي والحزن يأكل وجهه:

– ربما أخطأت التقدير وغاليت وفرطت لكن لم يكن أبدًا قصدي أن تكون هكذا الحياة، لذا أنا آسف يا عزيزة فلا تحتمل الحياة أن نحمل كل هذا بقلوبنا ونمضي والكدر في قلوبنا، الحياة شديدة القسوة ويجب أن نكون الملاذ الآمن لبعضنا.

قبلت يده فقبل رأسي فأمسكته من يده أدعوه للجلوس معنا، قال:

– حزني على حسين كبير.

– بقاؤك وحيدًا سيزيد الذكريات والأحزان يا أبي، اجلس معنا قد اشتاقك الصغير.

قال بلهفة:

– اشتقته أنا الآخر.

خرجت معه يُحاوط رقبتي بذراعه وكم كان من جميل شعور بمحاوطته لي وأني في حمايته، ثم جلس جوار أمي وحمل الصغير واحتضنه، قالت أمي:

– سأعد الغداء.

قال:

– شهيتي ضعيفة.

قلت لأمي:

– هيا نُعد الطعام فور أن يرى ماأعددناه ستكون الشهية قوية جدًا، تعلمين يضعف أبي أمام الطعام اللذيذ الشهي.

ابتسم أبي رغم حزنه الواضح والتف الجميع حول المائدة نتذوق أصناف الطعام وكأن أمي تُرحب بوجودي بما أحب من لذيذ الطعام، قالت أمي:

– هل رأيت حازم؟

أصابتني غصة في قلبي فلم أشأ إكمال طعامي، قال أبي وهو يلوك الطعام في فمه :

– جلس جواري.

قالت أمي بتمعن تنتظر ما بعد كلماته:

– ثم؟

– ثم لم يحدث شيء قمت من مكاني وانتقلت جوار صديق قديم أخذته الحياة بعيدًا بانشغلاتها عنا.

لا أدري هل تلك المشاعر التي راودتني حينها سعادة من تجاهل أبي له رغم إقدامه على محاولة للإعتذار بجلوسه بجانبه أم حزن لأن حازم سيزداد

عِنادًا أم خوف مما هو قادم أم هدوء لأن أبي لن يُضيع لي حق، قال أخي لما رآني وقد توقفت عن طعامي وشردت في التفكير:

– ورق العنب لذيذ جديد.

قالت أمي:

– أضافت عزيزة الليمون إليه فأضاف مذاقًا خاصًا.

قال أخي الأصغر:

– طالما هذه النتيجة إذًا بالكاد نفسية الطباخ هادئة ومرتاحة مما جعلها تطغى على صنيعه.

ضحكت في ارتياح وأنا أؤيد كلامه:

– العزوة ووجودي معكم هو ما أضاف لنفسي راحة لم أشعرها من قبل.

لا يعلم أحد أن العتاب هو ما أراح نفسي وخفف عنها بعض ذكرياتها الأليمة وحولها لذكريات جديدة سعيدة، هو العتاب نفسه الذي جعلني أتفهم كثيرًا مما غاب عني فتراكمت في صدري الأحزان وجعلت بيني وبينهم غشاوة كبيرة ماستطعت رؤية المشهد الصحيح من خلالها ورُحت أحكم على كل الأمور بسطحية وبنظرة الضحية رغم أن الجميع يُعاني من الماضي، إنه الماضي دائمًا الذي يخذلنا فإن كان حزينًا أحزننا باقي الأيام وإن كان سعيدًا أسعدنا بذكرياته، ورغم ذلك يجب على الإنسان أن يقاوم وأن يُحاول تحويل ذكرياته لسعيدة، أن يُواجه الأشخاص ويُعاتبهم لعلّه فهم الكثير الخاطئ، فكلٍ منا يتصرف بما يراه من وجهة نظره صحيحًا لكن ما

أن يحدث العتاب والمواجهة يكتشف أنه كان ظالمًا ربما أو حتى غير مُدرك لما فعله، لكن الشخص السوي هو من يعتذر ويحاول الإصلاح والمداواة.

بعد المغرب ذهب أبي مرة أخرى للعزاء بينما أعدت أمي كعك اللوتس وأتى أخي ببعض الحلوى بينما شارك الصغير بإحضار العصير الطبيعي الجاهز، قالت أمي:

– علينا ألا نُظهر تلك السعادة الكبيرة التي تلتف بنا بقدوم أختكم فمهما كان والدكم شديد الحزن على صديقه ومن مواساته ألا نُشعره أن حزنه لا يعنينا.

قلت لأمي:

– ربما للسعادة أن تحضر إليه لما يرانا سُعداء فيهدأ الحزن في قلبه وتهدأ نفسه الخائفة من وِحدته أيامه المُقبلة دون صديقه المُقرب.

قال أخي:

– والدي صعب تعجبت كثيرًا من تصرفاته اللينة اليوم.

لم يعلم أحد عن عتابنا داخل الغرفة والذي جعل أبي يُعيد التفكير كثيرًا بطريقته فالعمر يسير ولا يعلم بأي لحظة يُمكن أن يُدركه الموت فحاول أن يُعالج ما كان، قالت أمي:

– والدكم شديد اللين لكنه يخاف عليكم قسوة الحياة فيقسو هو ليعلمكم مُرها فهو لا يطيق عليكم أذاها.

قال أخي الأصغر:

– أحيانًا أتمنى لو شاركني لعب الدومان أو رافقني السير في أي مكان.

قلت وقد فهمت الدرس جيدًا:

– ولمّ لا تطلب منه ذلك؟ لمّ تنتظر أن يعرض هو؟ كيف له وأن يعرف ما تتمنى.

من تمنى الحصول على شيء عليه أن يسعى لأجله لا ينتظر مكانه ويبكي أن مُبتغاه لم يأته.

قالت أمي:

– صِدقًا ما تقولين يا عزيزة.

قال أخي من جديد:

– سأفعلها اليوم بإذن الله.

قلت:

– عليك ترقب الوقت المُناسب لأنه اليوم في حالة كثيرة المشاعر حنين لصديقه وحزن لصديقه وباله مشغول بالذكريات طوال سنوات الصداقة فلن يكون مُستعدًا أبدًا لذلك وربما رفض، وبالتالي لو رفضك المرة الأولى سيعود على نفسك بالكثير من الاحباط رغم أن معه كل الحق لأن الظروف الآن لا تسمح له بذلك، لذا عليكِ التريث وترقب اللحظة الهادئة كي يُرحب فتسعد نفسك بتلبية أمنيتك.

قالت أمي مُبتسمة:

- تغيرتِ كثيرًا يا عزيزة.

أدركت ما ترمي إليه فلم يسبق لي أبدًا النقاش وإلا إبداء رأيي لكنها الراحة يا أمي، الراحة النفسية التي جعلتني أتحدث وأناقش وأعبر عن كل شيء دون خوف، حتى الصغير يهنأ بنوم جميل وقد توّرد وجهه لشدة الحب والسعادة التي يعيشها في هذا المنزل، دقّ هاتفي ودقّ قلبي لما وجدت المُتصلة أخت زوجي، كدت أعطي الهاتف لأمي لترد وأحاول الاختفاء، لكنِ تمالكت نفسي كثيرًا وقررت المواجهة فلم أفعل مايجعلني أتهرب، قالت بعد السلام:

- كيف الحال؟

قلت:

- بخير.

قالت:

- اتصلت كثيرًا بحازم فلم يرد أين هو؟

ما عرفت هل أخبرها بكل ما كان أم أتهرب، بكى الصغير فانتهزت الفرصة، قالت حماتي تريد مُحادثتك:

- لعلكِ بخير يا عزيزة، اشتقناكم منذ ذهابكم من المشفى.

قلت ممتنة:

- ونحن اشتقنا رقة قلبك يا خالة.

قالت:

- أبلغي حازم سلامي فلم يُعطنا فرصة السلام عليه وعليكِ لما ذهبتم يومها.

أغلقنا بعدها وقد فهمت أن حازم لم يذهب إليهم بالأمس كما قرر ولم أفهم لمّ تصرف هكذا!، لكنه أيضًا لم يُخبرهم عن شيء مما حدث!، ما كان مني إلا أن حاولت الهدوء من جديد لمشاركة أهلي تلك الجلسة الهادئة وعدم مُحاولة التصرف في هذا الأمر بتاتًا طالما صار أبي هو المعنيّ به.

بعد العِشاء بساعة عاد أبي وقد جلست وأمي في الردهة والصغير بجانبنا يحرك يده هنا وهناك، قال ولم يتركه الحزن:

- أين الشباب؟

قالت أمي:

- يُذاكران فقد اقتربت الامتحانات.

جاء وجلس بجانب الصغير يُلاعبه ويحمله علّه يُخفف عنه، قالت أمي:

- سأحضر العشاء.

قال:

- لا أريد سوى الشاي وأضيفي إليه القرنفل.

ذهبت أمي تُعد الشاي ونظر أبي نحوي قائلًا:

- أريد أن أعرف ماذا حدث بينكم بالضبط يا عزيزة.

دقّ قلبي ورجفت يدي بشدة، أردف:

– طالما أنا المسؤول عنكِ الآن وعن حياتك القادمة أريد معرفة حجم الخطأ الذي اقترفه في حقك من قبل.

قلت:

– قلة التقدير يا أبي وقد ظهرت حين زارتني أمي وعلى هذا أغلب أمور حياتنا قلة تقدير التعب، قلة تقدير الحب، قلة تقدير الاهتمام، قلة تقدير الأهل، قلة تقدير المطالب والاحتياجات، هي قلة التقدير في أغلب أمور حياتنا.

عبس وجهه قليلًا ثم قال:

– وماذا عن باقي صفاته؟

قلت:

– لا أفهم قصدك يا أبي.

قال:

– أريد معرفة كامل صفاته يا عزيزة حتى إذا ما جلست معه عرفت مداخله لنقاشه بهدوء.

تساءلت مُتعجبة:

– مناقشته! الجلوس معه!

– نعم يا عزيزة، من جديد جاء الرجل وجلس جواري وقال رغبته بزيارتنا بالغد.

ابتعلت ريقي بصعوبة فأردف:

– طالما يُصر على مُجالستي رغم نُفوري إذًا هناك حديث طويل لذا أريد معرفة حجم الخطأ لأعرف كيف أتحدث.

جاءت أمي وجلست فسرد عليها أبي ما كان فنظرت نحوي قائلة:

– ماذا تُريدين يا عزيزة؟

كان الصمت هو سيد الموقف بالنسبة لي ولم أعرف مالمفترض أن يكون، لكن بعد تفكير لبعض الوقت قُلت لأبي:

– لست مستعدة أبدًا لذلك.

قال أبي:

– إذًا سيكون الحديث معي فقط يا عزيزة ريثما تلتئم روحك وتستطيعين الحديث والمواجهة والعتاب، لن أقرر عنكِ ما يجب أن يكون ستقررين أنتِ ذلك بما يتناسب معك.

من جديد أخذت أمي الطفل لينام جوارها قائلة:

– ارتاحي هذه الليلة أيضًا يا عزيزة وفكري بهدوء والطفل معي أيضًا في هدوء.

قلت:

– كيف تبدل رأيك سريعًا؟

– لن يفعل والدك سوى الصواب وسيقوم بتأديبه أولًا ويأتي لكِ بحقك.

من جديد قمت الليل ودعوت كثيرًا أن يحدث مافيه الخير لي، قرأت القرآن بهدوء شديد وروت السكينة قلبي فهدأت نفسي ونمت ليلة هانئة.

جاء الصباح بصوت الصغير على بابي قمت مُسرعة مُشتاقة إليه، قالت أمي:

– دقت التاسعة والفطور جاهز.

قلت وأنا أتمطى:

– نمت كثيرًا لكن ارتحت كثيرًا.

بعد قليل كان انضمام الجميع على السُفرة والأحاديث عن الصُحبة والمدرسة والأقارب، وذهب بعدها أبي للعزاء في يومه الثاني لمواساة أبناء حسين، مرّ الوقت بعدها سريعًا حتى وجدنا الباب يدق وعاد أبي ومعه حازم، لم يدخله عند الأريكة كما يجلس وأصحابه والأقارب لكنه أدخله إلى الصالون في إشارة منه لرسمية الموقف، وأغلق الباب بعدما جاءني وأخذ الطفل ليراه والده، ثم لم تمضِ دقائق قليلًا حتى ارتفع صوت حازم قائلًا:

– ما جِئت لعتاب ولا لوم جئت لأخذ زوجتي وابني وعليها طاعتي وليس لأحد التدخل في أمورنا.

خرجت من غرفتي على صوته وأنا أشعر أن حربًا ستقوم الآن لكن أمي أشارت لي بالدخول لغرفتي وذهبت مُسرعة لإحضار الصغير الذي ارتفع صوته بالبكاء خوفًا من الصوت العالي، ثم خرجت وجاءت بالصغير لي وما أن بدأ بالرضاعة مني حتى هدأ وسكن في حضني بعدما وجد الأمان،

كان الصوت شديد الهدوء بعدها لم نسمع شيء حتى خرج حازم راحلًا وخرج أبي نحو البلكونة، وذهبت أمي نحوه وبقيت مع الصغير حتى نام ثم انضممت إليهم، قال أبي:

– قلة تقدير كبار السن، قلة تقدير الظروف.

قالت أمي:

– قالتها ابنتي سابقًا أنه قليل التقدير في كل شيء.

قال أبي:

– برأيك يا عزيزة ما سبب ذلك؟

– لا أعلم يا أبي!

قالت أمي:

– لم يتم تربيته بشكل جيد.

استنكر أبي ردها ثم قال:

– هو الآخر يُعاني من مُشكلات كثيرة معكِ يا عزيزة.

انتفضت من مكاني قد علت نبرة صوتي:

– معي أنا؟ وماذا فعلت أنا؟ فيمَ أجنيت؟ وأنا التي جعلت له من الحياة شديدة اليُسر في كل شيء.

قال لما وجدني انفعلت:

– اهدئي يا عزيزة عليكِ الهدوء، ها قد فعلتِ مثله ورفعتِ صوتك دفاعًا عن نفسك.

ابتلعت ريقي بصعوبة ولم أستطع الرد، قال بهدوء:

- اذهبي لغرفتك واهدئي تمامًا وفي الغد صباحًا نتحدث بهدوء.

ثم قام عن مكانه ودخل لغرفته وتبعته أمي إعلانًا منه بانتهاء النقاش، لكنِ ترنحت مكاني ولم أفهم ماذا يكون قد حدث، هل يُعقل أن أُصبح أنا المُخطئة في النهاية بعد كل ما كان منه!، ذهبت لغرفتي واستلقيت بجانب الصغير وأنا أفكر كثيرًا وأتذكر أكثر، عادت بي الذكرى لبداية أيام زواجنا، كنت أتفنن في كل وسائل الراحة له وأقضي مُعظم الأوقات بالمطبخ أعد له مايحب من الطعام والحلوى والعصائر، لكن قلة تقديره بدأت من هنا رغم أنه في البداية كان سعيدًا بذلك لكن سرعان ماتبدل وأصبح يتأفف بعد ذلك، وقرر بعد أيام قليلة العودة لعمله يومها سألته:

- لمّ عُدت سريعًا للعمل!

قال دون مُبالاة:

- ليصبح لديكِ الكثير من الوقت وحدك للجلوس بالمطبخ.

حزنت يومها وهو يُحادثني هكذا وكأنما تزوجنا لأصبح مُعدة فقط للطعام وها هو اعتاد وجودي بالمطبخ، أي قلة تقدير هذه التي حدثني بها!، انفعلت كثيرًا حينها وقلت:

- وهل تزوجنا لأصبح مُعدة للطعام؟

امتعض وهو يُجيب:

- تمزحين بإجابتك تلك؟

بدأت في البكاء لسخريته مني وعدم مُجاراته لي بالنقاش، ثم انسحبت سريعًا لغرفتي ورحل هو حينها للذهاب لعمله، وأصبحت بالفعل أقضي أغلب الوقت بالمطبخ لعلي بهذا أرضيه فتكون علاقتنا جيدة لكن لم يحدث إلا أن زاد جفاءً!

تذكرت الموقف وأنا أبكي ثم أخذتني الذكريات ليوم اكتشافي الحمل وكنت سعيدة جدًا بانتظاره لأخبره بالخبر السعيد، فلما دخل من الباب أسرعت نحوه وقلت:

- أجريت اليوم اختبارًا للحمل واكتشفت حملي.

كنت شديدة السعادة وأنا أخبره بذلك وظهرت على وجهه علامات السعادة لكنها سُرعان ماتبدلت وعاد يسأل:

- من أين لكِ باختبار الحمل؟

لم أفهم سؤاله فقلت مُوبخة:

- هل هذه سعادتك بهذا الخبر؟

- كنت أتمنى لو شاركتني الفرحة بأن أشتريه وشاركتك انتظار النتيجة.

- لم أنتبه لذلك، ثم هل المهم الآن النتيجة أم تلك الأسئلة والعتابات؟

قال:

- مبارك يا عزيزة بإذن الله ينير حياتنا.

انطفأت فرحتي يومها لتصرفه ذلك وعتابه هذا، وبكيت وذهبت لغرفتي فدخل خلفي:

- هل هذا وقت البكاء؟

لم أكترث له ثم قال بنبرة فكاهية:

- أنا جائع هل لي بطعامك!

انتفضت حزينة:

- تسخر مني ومن حزني.

لم يرد وخرج يزمجر غضبًا كأنما يتعجب إجابتي المنطقية على أحاديثه التي يتعمد بها دائمًا أن يسخر مني ولا يُبالي لحزني لشدة قسوته وجفائه!

تذكرت تلك الذكرى وازددت سخطًا عليه وغضبًا منه، تذكرت أيضًا كل ما كان منه بعد ولادتي فكلما شكوت إليه تعبي وقلة نومي لاقيت منه سخرية وجفاءً ولم أجد منه حنانًا قط، بكى الصغير فحملته ليهدأ وقلت:

- وبعد كل هذا يتهمني والدك بالخطأ وبالمعاناة معي، هل رأيت حماقة كهذه يا صغيري؟

ثم حملت الصغير وقمت من مكاني وأنا أردد:

- سأثبت لأبي غدًا كل شيء، فها هو حازم وقد رأى الجميع يلتف حولي بدأ يختلق المشاكل ويرميني بالاتهامات.

بعد ساعة نادتني أمي لتناول العشاء فخرجت والصبي هادئ فتناولته أمي وقد اشتاقته لشدة ماتعلقت به في الأيام السابقة، لم أنتبه لحديث العائلة وكنت في غمرة من التفكير في كل ذكرى سيئة، قالت أمي:

– ذهب والدك لأولاد حسين بالعزاء لمواساتهم مع أنه يحتاج لمن يُواسيه.

قلت بهدوء:

– رحمه الله كان صديقه الوفيّ.

قال أخي وقد قام عن مكانه:

– أليس من المُفترض أن أذهب مع أبي وأجالسه بالعزاء؟

ثم مضى نحو غرفته يُبدل ملابسه للذهاب للعزاء، قالت أمي:

– لمّ لا تأكلي يا عزيزة؟

– لست جائعة.

قال أخي الأصغر:

– سأذهب مع أخي أنا الآخر.

ابتسمت أمي وتركته يذهب مع أخي، ثم التفتت نحوي وقد خلا البيت من الجميع سوانا:

– هل ضايقك كلام والدك؟

– تحامل عليّ يا أمي، لا بُد وأن حازم يريد بحديثه هذا أن يجعل الخطأ مني لعودتي إليه دون كرامة من جديد.

– ولمّ كنتِ بلا كرامة في القديم يا عزيزة؟

لم أستطع الرد فلم أجد إجابة قالت:

– جميعنا نُخطئ لا أحد معصوم من الخطأ، وهو ربما أخطأ معك كما

حدث وأخطأ في حقي بتجاهله لي لأنه اعتاد تجاهلك لنا فلم يعرف لنا قيمة.

ثم أردفت:

– تناولي عشاءك واذهبي للنوم واتركي الصغير معي فقد اعتدت حضنه ليلًا،ووالدك أيضًا يجد في وجوده راحة ومواساة لقلبه.

عدت لغرفتي بعد الانتهاء من كل شيء وبدأت بالصلاة وقراءة القرآن والدعاء كثيرًا أن يقدر الله مافيه الخير لي.

جاء الصباح وانتهى الفطور وكل واحد ينظر نحو الآخر، أبي ينظر لتصرفاتي المتوترة وأنا شديدة التوتر لأني أنتظر مناقشة طويلة لا أدري كيف ستكون، جلس بانتظاري في البلكونة ريثما أُرضع الصغير ثم جالسته وأمي أيضًا والصغير في حجرها، قالت بعد حديث بسيط:

– لكن قبل كل شيء لا تنسى أنه تعدى حدوده ورفع صوته في بيتنا.

أجابها ينظر نحوي:

– لكنه لما وجد مني هدوءًا وعدم انفعال سرعان ماعتذر عن ردة فعله وجلس.

قالت أمي:

– وكيف سمحت له بالجلوس مرة أخرى بعدما تطاول عليك؟

– تربى حازم وحيدًا دون اختلاط بأحد لذا تغيب عنه الكثير من الأمور هو يريد من يحتويه، طالما أن الانسان يعتذر إذًا لديه معدن جيد، ثم أني

تعاملت مع الموقف كما لو أنه ابني فلو كان من ابني ما كان منه لتعاملت مع الأمر بهدوء، كما حدث بالأمس تمامًا مع عزيزة حين انفعلت.

قلت بحزن:

– لم يفعلها أبدًا من قبل ولم يحدث أن اعتذر مني رغم كثرة الأخطاء في حقي.

– ربما كانت ردود أفعالك معه هي السبب يا عزيزة.

– أنا؟

– أنتِ أعلم بما كان بينكم.

– لكنِ لم أكن سوى مُطيعة، لا أعترض قط على شيء، لا أطلب حتى منه شيء، لا أكلفه شيء، لا أعارضه في شيء، لا أناقشه، لا أحادثه إلا إن بدأ الحديث.

امتعض والدي كثيرًا وقال بشدة:

– وهل هذه حياة زوجية يا عزيزة؟

تعجبت حديثه، قالت أمي:

– فرطتِ في كل حقوقك وحقوقه أيضًا يا ابنتي!

– أنا! بعد كل مافعلته أنا المُخطئة!

قال أبي:

– هو أخطأ في قلة تقدير ماتفعليه كما تقولي، لكنكِ أخطأت في نظام الحياة

التي جعلتي منها حياة مُملة ورتيبة لا جديد فيها، حياة تخلو من النقاشات والأحاديث عن الحياة خارجًا وداخلًا، فلم يجد من يُناقشه عن متاعب حياته ومشاكل عمله ومشاكله عمومًا فأصبح مُكدسًا بكل المتاعب ويرى أنكِ السبب، جعلتِ من الحياة سكوت وهدوء شديد حتى أنكِ ابتعدت عن الجميع وجعلتي الحياة بينكم حِكرًا عليكم، فنتج عن كل هذا قلة التفاهم بينكم، الفهم الخاطئ لبعض الأمور، فمن أين يأتي التفاهم وليس هناك عتاب لشيء، كيف لكِ أن تفهمي قصده دون نقاشه؟

بكيت وتساقطت دموعي:

– هل أصبحت الآن أنا المُخطئة وهو الضحية؟

قال مُوضحًا وهو يُمسك بيدي مُطمئنًا:

– لم أدفع عنه الخطأ لكن أنتِ أخطأت منذ البداية يا عزيزة، ومن الطبيعي أن يسأم أي فرد حياة لا روح فيها.

روح الحياة هو النقاشات والخلافات ثم محاولة كل طرف مُراضاة الطرف الآخر فتتوطد العلاقة بينهم بالحب، أما الحياة التي تخلو من كل شيء سوى نظام يومي تسير عليه دون تغير فمن الطبيعي أن تموت.

قالت أمي:

– نحن لا نُدينك يا عزيزة، نحن نعالج الأمور وعليكِ رؤيتها من منظورها الصحيح، كما تُعانين من الأتعاب هو يُعاني الكثير كما قال.

قلت بحزن:

– هو دائمًا يُلقي اللوم عليّ وها أنتم تُجارون أفعاله.

قال أبي:

– اهدئي يا عزيزة وفكري بهدوء، الرجل يريد حل الخلاف ويريد الجلوس معك، خذي وقتك في التفكير وحددي الموعد المناسب للجلوس معه ونحن في ظهرك، عاتبيه فيما يحلو لكِ لكن بهدوء أنتِ أدرى الناس به وبعشرته وبمعاملته.

انسحبت من الجلسة ونفس الذكريات تدور بذهني ولا أدري لمّ؟، حاولت الهدوء حاولت التفكير بتريث وهدوء كيلا أفقد حقي بالعصبية، تُرى هل أكون أنا المُخطئة بعد كل هذا؟ أكون أنا من تسببت في كل هذا وأنا لا أشعر؟

الزواج الناجح لا ينبني على حبك لمميزات الطرف الآخر، ولكن على تقبلك لعيوبه.

- أحمد الشقيري.

(حازم)

تربيتُ أنا واخوتي مع أمي فقط بعدما طلقها والدي ولازلنا صغار وسافر رُبما أو انتقل لمحافظة أخرى لا ندري لكن الحقيقة أنه اختفى تمامًا من حياتنا، فتحملت أمي دور الأم والأب معًا حتى طغى دور الأب لتستطيع تربية رجال، بعد تخرجي والعمل قررت الزواج وتقدمت لفتاة على خلقٍ عال وجمال هادئ.

لكن ثمة مواقف حدثت بيننا جعلتني أطلق عليها أحكامًا كثيرة فمثلا:

يوم تقدمت لها وقد قدمت أمها العصير لاحظت أنه مخفف جدا على عكس ماأحب فأردت تنبيهها لهذا الأمر حتى إذا تزوجنا أعدته كما أُحب لكن يومها لاحظت أنها تضايقت وقد ظهر على وجهها لذا قمت بتغيير مجرى الحديث سريعًا وعلى كل حال أعجبتني وأعجبني هدوئها جدا.

خلال خطبتنا لاحظت أنها مع كل اختيار لشيء ما في شقتنا لا تُعلق كثيرًا وأغلب المرات تترك الأمر لي حتى أني أصبحت أعتمد على قراري فيما يخص شقتنا طالما لا تريد مشاركتي!.

ذات مرة قالت لي:

- لمّ لا تأتي زوجة أخيك لزيارتي أو حتى مهاتفتي والمباركة؟

استأت يومها من الحديث لأن العلاقة بين أمي وزوجة أخي سيئة لأبعد حد بسبب لؤم تلك الزوجة التي تريد الاستحواذ على أخي وإبعاده عنا، قلت بغضب واضح:

– لا علاقة لنا بها ثم أني لا أريد أن يصبح هناك علاقة معها فتصرفاتها سيئة ولا تعجبنا أبدًا!

تعجبت وظهرت علامات الحيرة على وجهها:

– ماذا فعلت؟

– لا يخصنا.

سكتت يومها وامتعضت من ردي واستكانت تمامًا وحين عدت للمنزل وأخبرت أمي بما حدث كي تُخبرني ماذا عليّ أن أقرر في هذا الأمر قالت في حدة:

– كنت محقًا في طريقتك.. عليها أن تفهم ذلك جيدا فلا تحاول أبدًا وصل الود مع تلك الحرباء.

وفي اليوم الثاني اتصلت مستاءة وهي تقول:

– هل أنا غريبة عنك حتى تقول عن أمر عائلي لا يخصني؟

– لم أقصد لكن هناك مشكلات كثيرة بينها وبين أمي ولا أريد أن نكون طرفًا في هذه المشاكل.

– ولمّ لا تكون أمك هي المخطئة؟ لمّ تتحامل على المرأة و...

– هل جُننتِ كي تتحدثي هكذا عن أمي! أمي العاقلة الناضجة التي لم أجد في كل تصرفاتها سوى الحكمة.

حاولت يومها أن تشرح وجهة نظرها لكن كنت غاضبًا حتى أبعد حد وحذرتها أن تتحدث عن أمي بهذه الطريقة مرة أخرى، ورغم حزنها من طريقتي إلا أني كنت حازمًا جدًا معها لكن من داخلي شعرت أنها لا تحب أمي لكن تداركت الأمر لأنه مجرد شعور دون أفعال ملموسة تؤكد لي هذا.

وقُبيل زواجنا قالت أمي:

– هل تظن عروسك أن بتجاهلها لي مصلحة لها؟

– ماذا تقصدين يا أمي؟ ماذا حدث من عزيزة!

– المشكلة أنه لم يحدث شيء هي لا تهتم بي ولا تراني بتاتًا! كيف تسمح بهذا يا حازم؟ لو وجدت منك وصاية على أمك لاهتمت بي.

تعجبت حديثها لكنِ غضبت من خطيبتي:

– سأتحدث معها يا أمي لا تحزني لا شيء أهم من وجودك في حياتي.

ابتسمت أمي وسعدت من قولي هذا ولم تمضِ الليلة إلا وأنا أتحدث مع عزيزة في هذا الأمر:

– لمّ لا تتصلي بها وتهتمي لأمرها؟

– تعلم انشغالاتي في تجهيز ال...

– أمي أهم من كل شيء.

– لكنِ لم أطلب منك مرة أن تتحدث مع أمي ولم تشكوا أمي من قلة حديثك بل ولم تتسبب في مشكلة بيني وبينك بسبب هذا الأمر، لمّ لم تتحدث أمك معي مباشرة! لمّ لا اتصل بي أبدًا؟

– تحاولين قلب الطاولة؟

– أنا أتحدث عن الواقع الموجود و...

– اصمتي يا عزيزة ولا تتحدثي بهذه الطريقة مرة أخرى طالما الأمر يتعلق بأمي إذا تفعلين ما يملى عليكِ دون نقاش، صباح الغد تتصلين بها وتعتذرين.

– لكنِ لم أخطئ في حقها.

– وهذا طلبي يا عزيزة.

ثم أغلقت معها وقلت في قرارة نفس إن لم اتصل صباح الغد فلا مكان لها في حياتي لأن رضا أمي أهم من كل شيء، لا أنكر أن لها غلاوة ومعزة في قلبي لكن لا أريد تكرار مافعله أخي فتحزن أمي فوق حزنها.

عند عودتي من عملي مساء اليوم التالي عرفت أن عزيزة كانت في زيارة لأمي وقد أحضرت لها هدية بسيطة وجلست تتحدث معها كثيرًا عن انشغالها بسبب تجهيزات الزواج وأن هذا مايمنعها من التواصل، سعدت كثيرًا من تصرفها لكن الغريب أن أمي يومها قالت:

– لم تأتِ حبًا في لكنها خافت أن تتركها قبل الزواج وتصبح سيرتها على كل لسان لذا لا تفرح كثيرًا لكن المهم أن تتحدث عني دائمًا وتوصيها بي.

وافقت على كلمات أمي علانية لكن سرًا بيني وبين نفسي تعجبت ردة فعلها وليلتها اتصلت بعزيزة أشكرها وأمدح صنيعها.

وسُرعان ماتزوجنا في شقة بعيدة عن أهلي وأهلها وكنت أنا صاحب الفكرة، لأني لا أحب تدخل أحد في حياتي، خاصة مع ما حدث في حياة أخي في بدايتها مع زوجته، وقت أن سكن جوار أمي وأصبحت الخلافات كثيرة بينها وبين زوجته وانتهت بأن أخذ زوجته وابتعد فكانت الصدمة لأمي التي شعرت وقتها أنها تخلى عنها واختياره لرضا زوجته، لذا كانت صارمة جدا مع وتُملي علي طوال الوقت معايير اختيار زوجة جيدة وأن أُثبت لها من البداية أهمية أمي في حياتي، فاخترت السكن بعيدًا وتحججت بقربه أكثر من عملي.

لكن بعد الزواج كانت صدمتي بالفتاة حيث كانت شديدة الضعف لا تُناقش ولا تبدأ بحديث إلا لو بدأت روتينية لأبعد حد، وقد أردت زوجة قوية كأمي تستطيع مُسايرة الحياة بقوة أمي، امرأة أستند عليها لكن كانت تتمادى في ذلك وتبتعد، بعد أيام زواجنا الأولى حين صارت تُهملني وتجلس كل الأوقات بالمطبخ مما أشعرني بالملل، قررت عتابها:

– ماذا تفعلين من جديد؟

بثقة واضحة:

– أحضر بعض الحلوى والعصائر.

– للتو قد انتهينا من الغداء ولا قابلية لأي طعام ياعزيزة.

- اذهب للجلوس وسأنتهي وآتيك سريعًا.

وما أن تنتهي حتى تبدأ في عملٍ آخر رغم أن الشقة لازالت نظيفة لم تتسخ بعد، عرفت أنها تتهرب من الجلوس معي فما أصبحت أسألها عن شيء، وقررت العودة للعمل لكنها قالت ببرود شديد:

- لم ستعود للعمل؟

قلت مُستهزئًا:

- ليكون لكِ وقت أطول للاستمتاع بالمطبخ!

قالت:

- وهل تزوجتني لأظل بالمطبخ؟

استأت من سخريتها وتركتها وذهبت إلى العمل بمزاجية شديدة الكدر لأني لم أهنأ بأيامي الأولى كما توقعت، كنت أريد الإهتمام الكثير والحنان الغامر خاصة وأن أمي طوال حياتها كان كل مايهمها هو تلبية طلباتنا دون الاهتمام باحتياجاتنا من المشاعر، فكان كل ما أتمنى زوجة تحتويني وتُعوضني مافقدته بحبها وحنانها الفطري الكبير لكن كانت عزيزة بعيدة كل البعد عن ذلك.

حين عدت لعملي وجدت الجميع يتغامز ويتلامز لعودتي للعمل بعد أسبوع واحد من زواجي، فلم يفعلها من قبلي أحد لشدة استمتاعهم بزوجات ناضجات يُبدعن في جذب أزواجهن لكن كنت أنا سيء الحظ، قال أحدهم:

- هل هُناك من يعود للعمل بعد تلك الفترة القصيرة يا حازم؟

قلت برسمية شديدة:

- الأمر يخصني وحدي.

ثم اتجهت مباشرة نحو مكتبي في قسم المُحاسبة ورغم أني قُلت عكس ما أتمنى إلا أنني حاولت تجاهل شعوري، كم تمنيت أن أُكون صداقات ورغم ذلك أرفض كل من يقترب لا أدري لمّ لكنِ لا أحب الاختلاط ولا أحب البوح بكل مابداخلي لصديق كما يفعل البعض، لا أثق بفكرة الصداقات ربما لأني لم أعشها من قبل بسبب محاوطة أمي لنا من صغرنا وهي تحذرنا من كل شخص وكأن تجربتها مع رجل سيء جعلتها تفقد الثقة بكل شخص كان سواء زوج أو صاحب أو حتى جار.

أحيانًا وبسبب شخص سيء واحد نفقد الثقة في أنفسنا ومن نحب ونهجر الناس جميعًا ونبتعد عن كل من يتقرب لئلا نشعر بالخذلان مرة أخرى.

كنت أتمنى لو تقربت مني زوجتي لأبوح لها وتستكين نفسي بالحديث عما آلمني كثيرًا، لكن مع كل موقف كانت تُثبت لي أن حياتنا محض حياة تعيشها لُتكمل أيامها في الدنيا وليس لتبني بيتًا به زوجًا يشتاق كل الشوق لتكوين عائلة تُعوضه عن سنين الفقد.

عدت ذات يوم من عملي فقالت:

- أجريت اختبار الحمل واكتشفت حملي.

كنت في غاية السعادة لما سمعت الخبر وكدت أتقافز من الفرحة لكن

للحظة شعرت بالاستياء لأني لم أشاركها انتظار نتيجة الفحص وأنا الذي ينتظر هذا الخبر بترقب شديد، قلت:

- من أين لكِ بالاختبار؟

استاءت من كلامي وسرعان ماذهبت لغرفة النوم حزينة، لكن لم يحدث أن حاولتُ استرضاء أحدهم من قبل ولم أعلم ما أحزنها وقد كان كل مايشغلني مشاركتها فالمشاركة تعني مزيد من الحب والتفاهم، قلت مشاكسًا كي ترضى وتطيب:

- جائع أنا.

لكنها استاءت أكثر ولم تتفهم كوني أشاكسها بنبرتي المازحة، وتمادت في حزنها مما أحزنني أكثر منها لأني لم يسبق لي التعامل في مثل هذه أمور، لا أدري مالمفترض فعله أو قوله.

اتصلت أمي تسأل عن حالي قلت في سعادة:

- الحمد لله، في القريب سيأتي حفيد جديد.

بسعادة شديدة:

- مبارك لكما يا حبيبي سآتي مساءً للمباركة.

بعد المكالمة نمت أستريح قليلًا من حر الطريق بالخارج، واستيقظت بعدها فحضّرت لي الطعام دون مناقشة أو كلام، تعجبت تصرفها، أنهيت طعامي سريعًا وكم تمنيت أن تُشاركني الطعام لكن جلست بعيدًا، فهي هكذا دائمًا كلما استاءت أو فهمتني بشكل خاطئ ابتعدت والتزمت الصمت والحزن رغم أن الأمور كانت بسيطة وليست حد هذا التعقيد.

مساءً دقّ الباب فذهبت لفتح الباب وكنت على علم أنها أمي، وفور أن خرجت عزيزة من الغرفة قالت أمي:

– مُبارك لكما أتمها الله على خير.

عبست عزيزة ونظرت لي بحنق ثم قالت محاولة اخفاء ماظهر:

– باركك الله.

لكن كانت أمي قد لاحظت ونظرت نحوي بضيق لردة فعل زوجتي، ثم دخلت للجلوس وهي تقول:

– منذ أخبرتني بالخبر السعيد والفرحة لا تسعني.

امتعضت زوجتي وسرعان مانسحبت للمطبخ وأحضرت العصير ووضعته أمام أمي وجلست دون كلام، قالت أمي:

– يبدو أن تقلباتك المزاجية بدأت مبكرًا.

ثم قامت أمي من مكانها ولم تشرب العصير وقررت الذهاب، وفور ذهابها توجهت نحو عزيزة صارخًا:

– أنتِ قليلة حياء كيف تُعاملين أمي بهذا الجفاء؟

قالت غاضبة:

– ولمّ تُخبر أمك عن كل تفاصيل حياتنا؟ لمّ تتدخل أمك في حياتنا و....

قاطعتها غاضبًا:

– تتخطين حدودك يا عزيزة ولا أسمح لكِ بالحديث عنها بتلك الطريقة

كما أن من حقها معرفة هذا الخبر أليس بحفيدها، ومن المُفترض أن تأتي للمباركة لكن ليس من المُفترض مُعاملتها بتلك الطريقة الجافة.

انسحبت من النقاش وذهبت للغرفة الأخرى وأغلقت الباب على نفسها، فلم أُعرها أي اهتمام فقد أخطأت في تقدير أمي، وفي تقدير النقاش بيننا لمجرد أنها بعيدة عن أهلها تريد قطعي عن أهلي، ماذنبي أنها تُحب الوحدة ولا تحترم وصل علاقة قوية بأهلها، لا أذكر لهم سوى زيارة واحدة منذ بداية زواجنا سوى في صباحية يوم العُرس، أجزمت في نفسي أني لن أُحايلها لمراضاتها لئلا تُكرر الأمر وذهبت للنوم في غرفة النوم فيما بقيت هي في الغرفة الأخرى.

الغريب أن الأيام التالية مرت وهي تزداد عنادًا وابتعادًا تُحضر الطعام وتقوم بكل شيء على أكمل وجه لكنها لا تُحادثني أبدًا، حتى حضر أهلها للمباركة وكنتُ أعاملها بمنتهى اللطف والود، قالت أمها:

– بانتظار حفيدنا الأول بمنتهى الشوق.

قلت مُداعبًا:

– إن الحفيد الأول في أي عائلة يحظى بالكثير من الحب والدلال.

قال والدها:

– دائمًا لذة الشعور بالشيء لأول مرة تبعث فرحة وسعادة كبيرة خرجت من القلب خِصيصًا له فتكون صادقة لأبعد حد.

قالت عزيزة:

– سأعد العشاء.

لكن والدها اعتذر قائلًا:

- لا تُتعبي نفسك أبدًا نحن سنذهب الآن.

لكن عزيزة أصرت على ذلك وقامت مُسرعة بفرحة شديدة تُعد العشاء بحبٍ شديد وفرحة بقدوم أهلها، رغم حُزني من تصرفها مع أمي سابقًا عكس ماتتعامل به الآن إلا أنني لم أظهر ذلك أبدًا وتعاملت بمنتهى الهدوء مع الأمر ولما ذهبوا عادت تنام بالغرفة بعد هجر الليالي السابقة لكن دون حديث أو مناقشة أو اعتذار عما كان منها في حق أمي أو شكر عما كان مني في حق أهلها!

قررت في اليوم التالي الذهاب عند أمي كي أُسعدها بزيارة مفاجئة وتنسى ما كان في بيتي، ولما ذهبت ورأيت سعادة كبيرة منها لما زُرتها، قالت:

- هل يصح ما كان من زوجتك؟

قلت:

- بدايات الحمل صعبة وتقلبات مزاجية كما تعرفين يا أمي.

قالت والحزن يكسو وجهها:

- هل ما تمر به زوجتك الآن أصعب مما مررت به طوال حياتي معكم.

ثم أردفت لما لم تجد مني رد:

- أنا التي عكفت وحدي على تربيتكم وحرمت نفسي كل شيء لأجلكم تكون نهاية تقديري الاهانة في بيتك!

حاولت الربت على كتفها مُعتذرًا:

- هي لم تقصد صدقيني.

- لا تُبرر لها يا حازم فهذا ما جعلها تفعل ذلك أنك لست صارمًا معها.

قلت مستنكرًا:

- لكن ظروف حملها وتعبها...

قاطعتني بحدة:

- إن أردت النجاح في حياتك والاستمرار فعليك أن تكون شديدًا معها وحازمًا يا حازم وإلا تمادت في تصرفاتها وقامت بإلغاء شخصيتك تمامًا.

انتفضت مُستاءً وشعرت بصحة ماتقول أمي وقلت:

- المهم ألا تكوني حزينة وصدقيني أنا بالفعل كما تقولين وأكثر.

وتركت أمي وذهبت لبيتي وبداخلي ثورة عظيمة وغضب كبير أن يكون كلام أمي قد تحول لحقيقة بالفعل، فقررت أن أكون شديدًا جدًا معها وصارمًا كي تعتاد على حياة أنا من أقرر كل شيء فيها وليس هي، كنت حينها شديد الغضب منها وتذكرت تصرفها مع أمي ومن ثم تصرفها مع أهلها رغم أنها لم يسبق وأن تحدثت عنهم أو قررت دعوتهم لبيتنا، منذ الخطبة وكانت تشكو كثيرًا وحدتها وفراغها من الأصدقاء وحبها للوحدة، في البداية كنت مرتاحًا لهذا الشيء لأنها ستتفرغ للاهتمام بي وحدي، لكن كان اهتمامها بكل شيء حولي سوى أنا أو أي شيء يخصني!، جاءت عند الباب تستقبلني، قالت:

- تأخرت عن الخامسة هل حدث مكروه؟

قلت:

- لا شيء.

قالت دون تعقيب على كلامي:

- سأعد الغداء.

قلت وأنا أمشي تجاه غرفة النوم:

- تناولت الغداء عند أمي.

قالت:

- فلمّ لم تُخبرني بدلًا من انتظاري؟

لم أرد عليها وتجاهلتها ودخلت أُبدل ملابسي جاءت مُسرعة غاضبة:

- كنت جيدًا في الصباح والآن انقلب حالك وانقلبت عليّ.

فهمت ماترمي إليه وأن أمي المتسببة، قلت وقد ارتفعت نبرة صوتي:

- لا يخصك أين كنت وكيف أتصرف، أتأخر أو آتي في موعدي أتناول طعامي خارجًا أو داخلًا يعنيني وحدي وليس لكِ أن تسألي.

بكت وانهمرت دموعها وشعرت أني قسوت عليها وكدت أتراجع عن طريقتي، لكن تذكرت كلام أمي وخفت أن أترك لها العنان فتُصبح القائدة، قلت بغضب:

- أريد النوم الآن والراحة.

انسحبت للخلف وخرجت وسمعت يومها صوت شهقاتها وهي تبكي،

آلمني ذلك وودت لو خرجت في الحين لملاطفتها لكن تراجعت وقررت أن أتماسك وألا أضعف حتى تسير أمور حياتنا وفقًا لإرادتي وليس لإرادتها.

لم تنم الأيام التالية عن فرح أبدًا بل صارت تبتعد وتسكت، وتنام في الغرفة الأخرى وليس بيني وبينها سوى السلام وما يحتاجه البيت من طلبات، حتى أصبحت تتراجع عن ذلك أيضًا فتكتب ورقة بطلباتها وتعلقها عند الباب وتنشغل بالمطبخ وقتًا أطول، لا يدق بابنا سوى محصل الماء والكهرباء، وأهلها مرة كل شهرين أو أكثر وأمي باستمرار، لم يزدني ذلك سوى جفاءً تجاهها وحنقًا تجاه بيتي الذي ما أصبح سوى بؤرة للحزن والنكد.

لكن كان كل مايدفعني على الصبر كلمات أمي الحنون وقربها إليّ أكثر ودعوتها كثيرًا لي على الغداء وانتظار طفلي الذي سيحمل اسمي، كنا في ترقب شديد وفرحة كبيرة رغم استيائنا كل السوء من زوجتي التي تبتعد أكثر فأكثر والحزن يكسو كل قطعة في بيتي وما أضافت عزيزة لحياتي سوى النكد.

جاء ابني أخيرًا وخرجت من المشفى متعبة لا تستطيع الحركة لولادتها قيصريًا لضعف جسدها، ولم أكن قد سمعت أنا أو أمي عن امرأة تقربنا قد ولدت قيصريًا فجمعهن أنجبن بولادة طبيعية لكنه الدلال وتماثل المرض والوهن!

تركتها أمها في اليوم الثاني وكم تعجبت أنا وأمي من شدة قلب أهلها، وقد أخذتها عزيزة حجة للدلال أكثر والشكوى من التعب والألم كلما تحركت من مكانها، لكن أمي أخبرتني أنه مجرد دلال وأن الولادة القيصرية

سهلة وليست كالطبيعية شديدة الصعوبة، لذا أصبحت لا أعيرها أهمية كيلا تعتاد ذلك.

أراها تتثاقل وتود النوم إلى جانب الطفل طوال الوقت، كل الحلوى والعصائر وأصناف الطعام ماعادت لها رائحة في بيتنا، وكلما سألتها قالت:

– الطفل لا ينام ويأخذ كل وقتي لدرجة ماعدت أقوى على النهوض والوقوف كثيرًا بالمطبخ فلا زال الجرح يُؤلمني.

أي دلالًا هذا الذي زاد عن حده، أقول لها:

– وهل أنتِ بمفردك من أنجبتِ؟ الجميع مثلك ويفعل كل شيء! ألم يكن المطبخ مكانك المفضل؟

تبكي وتذهب كل مرة وكنت أحيانًا أتعمد ذلك كي أختلي بالطفل وحدي، كنت أريد احتضانه والشعور به فكم انتظرته لكنها لا تتركه حتى حين تذهب للمطبخ لإعداد بسيط الطعام تحمله معها أو تضعه في سريره المُخصص وتسحبه معها عند باب المطبخ، لم تكن تتركه أو تسمح لي بالاقتراب منه، يوم أخبرت أمي قالت:

– تتعمد الاستحواذ على الطفل لتهجرك ويحبها وحدها.

وتقول أيضًا:

– من حقك طلب ما تُريد فهي تستطيع فالمرأة بعد الولادة تسترد عافيتها سريعًا كنت ألدكم وأحضر كل شيء في اليوم الثاني، أما هي فقد مر على ولادتها وقت فأي تقاعس هذا، لقد هرب الدم من وجهك لقلة طعامك.

كنت أحزن لحزن أمي عليّ وأغضب على تلك اللئيمة التي تتدعي الضعف والوهن، فأعود للبيت غاضبًا مُحدثًا الحديث نفسه.

ذات مرة وبسبب حديثنا وارتفاع صوتنا بسبب قلة ذوقها مع أمي جاء جار لنا وبدأ يُملي عليّ النصائح بطريقة ماكرة مما زادني غضبًا عليها، فقسوت عليها متعمدا لكن مازاد ذلك إلا البعد بيننا وقد أصبحت الفجوة بيننا كبيرة، وبعدها اقتحمت زوجة الجار حياتنا وأصبحت تجلس معها بانسجام واضح مما زادني حنقًا عليها، حتى أني قررت دعوتهم إلى الغداء وطلبت منها إعداد الكثير من الطعام الذي يتطلب جهدًا كبيراً كي تكون قرصة أذن لها فتبتعد عنهم لما سببوه لها من أذى في بيتها لكن لم يحدث أن وجدت منها تراجعًا، وكلما وجدت منها تظاهرًا بالحزن والضعف وأنا أعلم أنها تُخفي خلفه وجهها الحقيقي أزداد غضبًا كيلا تُصبح الآمرة الناهية.

عند اقتراب ولادة أختي قررت أمي الذهاب عندها لتُصبح جوارها ولا تتركها وحدها في محافظة أخرى، لكن يوم ذهابها اتصلت بي في عملي لتخبرني أنها تنتظر مجيئي معها في الغد، قلت:

- كيف سأترك العمل؟

- لا بأس بإجازة ليومين.

- حسنًا سأحاول.

قالت بحسم:

- سأنتظركم صباح الغد أنت وزوجتك.

تعجبت قولها:

- لمّ أحضرهم؟

- كي تساعدني في خدمة أختك أنت تعلم ما عادت لي صحة.

- حسنًا.

مساءً وأنا أطلب من عزيزة الاستعداد بدأت تتحايل بكلمات جديدة وطريقة لا قِبل لي بها وصاحت:

- لن أذهب فابني أحق بخدمتي ومجهودي ثم أن عند ولادتي لم يخدمني أحد.

ازددت غضبًا:

- من أين لكِ بلسانٍ طويل وردود مستفزة؟

قالت:

- ومن متى وأنت حنون وتعطف على من تلد وتوصي بمساعدتها والبقاء جانبها!، ألست مثلها، ألم ترغمني على كل شيء بعد أيام قليلة من ولادتي ولم أكن أقوى على الوقوف لشدة جرحي الذي لم يكن قد التأم! لمّ الآن يذهب الجميع ليخدم أختك وما سمعت منك حتى كلمة تُعينني، وجئت بالجيران تسخر مني أمامهم وتضع أنفي بالأرض دون اكتراث لي.

قلت:

- جُننتِ بالكاد جُننتِ.

لكن كلماتها أثارت في نفسي شيئًا ماعلمته وتفكرت قليلًا في صحته لكن خفت أن تظنني ضعفت أمامها، فقلت بشدة:

– هي جارتنا تلك التي تبث السم في علاقتنا بكلامها وتجعلك تُرددين مالا تفهمين!

قالت:

– لكنك زدت كثيرًا في كل شيء ما عدت أتحمل، تحملت الكثير وما صرت أقوى على المزيد، حياتنا أصبحت بعيدة كل البعد عن الأمان، حتى أصبحت أخاف موعد عودتك من العمل، أخاف وقت تنادي اسمي، أي زواج هذا وأي حياة هذه.

من جديد حدثتني نفسي أني تماديت في قسوتي عليها وها هي تمل من الحياة، لكن سرعان ماتذكرت أنها ستتحمل المزيد مهما كان وخاصة مع بُعد أهلها وضعف علاقتهم، ستعتاد طريقتي ووقتها أحدد متى أمنحها الود ولو قليلًا لتستمر الحياة، لكنها بكت رغم ما كان يظهر عليها من القوة منذ قليل فانتهزت الفرصة وأمليت عليها الكلمات:

– سنتحرك في الصباح ولا نقاش في الأمر، لن يكون لغيري الأمر في هذا البيت ولن تُحققي مايدور برأسك.

في الصباح كانت قد أعدت كل شيء واستعدت هي والصبي أيضًا للسفر مما ضايقني منها وخاصة أنها تستطيع وكانت تتعلل بما لا فائدة منه، قلت وأنا أطالعها:

- ولمّ كل ماحدث بالأمس طالما نفذتِ كل شيء بالنهاية!

قالت وقد اقتربت نحوي تحمل الصغير:

- كل ما بالأمس كان لأجل ابني الذي ما ارتوى حنانك حتى اللحظة.

ثم بلحظة دفعت بالصغير نحو حضني فتراجعت متعجبًا لكنها مالبثت أن عاودت الكرة بدفعه لحضني من جديد، وقد بدأ في البكاء قالت:

- احمله فقط ريثما أُعد حقيبتي الشخصية.

كانت لحظة لم أشعرها من قبل خاصة وأن الصغير هدأ فور أن حملته فهل شعر بما يحمله قلبي له من حب وشوق أم أراد أن يقول أنه يحبني ويجد الأمان في يدي أكثر منها، أم يريد أن يعتذر عن تصرفات أمه التي تُحاول جاهدة إبعاده عني، وجدتها تُطالعني فقلت:

- ألم تنتهِ؟

فجاءت وحملت الطفل من يدي وودت لو تركته معي لكن ما أعرت للموضوع أهمية، وجلست في المقعد الخلفي مع الصغير ومررنا بالسيارة على بيت أمي فجلست بجانبي وكم كانت تشتاق الطفل فطلبت حمله فور جلوسها وبدأنا في الحديث عن أختى وظروف ولادتها بينما كانت عزيزة شاردة وربما تتهرب من الكلام ومشاركتنا عمدًا وضيقًا بأمي، قلت رغبة مني في احراجها لتهتم بأمي:

- لمّ لا تشاركينا الحوار؟

بكى الصغير فأعطتها أمي إياه لتقوم بإرضاعه وينام ريثما نصل للاسكندرية.

عند وصولنا بدأت في حركات المكر خاصة بعدما طلبت أمي منها ألا تندمج مع حماة أختي لأنها لا تريد تعكر مزاج أختي بتحكمات حماتها بها، فأصرت عزيزة على الجلوس معها أكثر لتسبب الضيق لأمي وأختي، فتُنبهني أمي بين لحظة وأخرى أن أوبخها لكن لا أدري ماذا أمسكني عنها، فقد كانت شديدة الإهتمام بي يومها ورغم ماوجدته مني من شدة إلا أنها أعدت لي الشاي وأحضرته لي دون أن أطلب وكنت بحاجة شديدة إليه، ولما آن وقت الذهاب للعيادة تركناها لتُحضر ماتبقى وذهبنا للمشفى فسمعت من أمي كلمات كثيرة بسبب زوجتي، قالت وقد دخلت أختي للعمليات:

- زوجتك تتفنن في مضايقتي، أين شدتك؟ أين كلمتك عليها؟ هل ستبدأ في أفعال زوجة أخيك لتنفرد بك، أراها تسلك مسلكها وترد وتفعل ما يحلو لها، تمسك بزمام الأمور يا حازم قبل أن يحل الخراب في بيتك.

ثم تركتني وذهبت جوار زوج أختي الذي كان يتوسل بالدعاء لأختي، والدموع في عينه، وأمي سعيدة بذلك وتتفاخر بذلك، تعجبت حينها وهي تشجعني على الصرامة وعدم اللين مع زوجتي بينما توصي زوج أختي باللين ثم اللين مع أختي!، تدعم زوج أختي لمحبته وخوفه على زوجته وتغضب مني لو لِنت قليلًا ولو بالسكوت عن مضايقة زوجتي، كنت في صراع نفسي لا أعلم ماذا أفعل! هل أمي مُخطئة وأنا مُخطئ أم أن الأمور اختلطت عليّ!، قالت أمي لما لم تجد مني رد:

– اذهب لإحضار زوجتك لقضاء الليلة معي هنا فلن أقوى على شيء وحدي.

قلت:

– والصغير؟

– لن يحدث له شيء الجو هادئ وسينام.

ثم قالت هامسة:

– بدلًا أن تجلس مع تلك الثرثارة وتجلب لأختك المشاكل.

ذهبت بالفعل لإحضارها وكانت تجلس حينها في شقة المرأة كما حسبت أمي تمامًا، ولما طلبت منها الذهاب رفضت بشدة وأعادت نفس كلماتها وواجهتني بظلمي لها في نفس الموقف الذي أدعم فيه أختي، وللأسف لامست كلماتها ماكنت أفكر به منذ قليل وصدقتها وعرفت بالفعل أني لم أنصفها أبدًا، لكن لست بغبي كي أظهر لها ذلك، وسريعًا قررت الانسحاب من النقاش بدلًا من التحدث في أمور أخرى تضعني موضع المُخطئ من جديد، عدت للمشفى ولاقيت من التوبيخ مالاقيت من أمي بسبب عدم مجيء زوجتي قلت:

– نام الصغير وجلست تُعد طعام الغد.

– نبهت عليها ألا تختلط بالمرأة؟

– نعم.

ثم دخل زوج أختي للغرفة فقالت:

– اهتم كثيرًا بغادة يا بُني فالمرأة الوالدة تحتاج للدعم والمساعدة طوال الوقت تحتاج للكلمات الهينة اللينة، سأبقى معكم لأيام لكن مع ذهابي سأترك لك حِملها فاعتني بها ولا تُرهقها.

قال:

– من دون وصية ستكون في عيني ولن أجعلها تُرهق نفسها في شيء أبدًا لا يهمني بالحياة سوى صحتها.

قالت:

– باركك الله يا عزيزي، عليك أن تعلم أن تعب المرأة وإجهادها بالأعمال بعد الولادة يُكسر عظامها ويظهر أثره بعد ذلك بضعف شديد.

– بإذن الله أجعل لها كل الراحة في قلبها وجسدها.

سكتت حينها ولم يسكت قلبي ولا عقلي عن التفكير في كلام عزيزة الذي يُوقظ في داخلي الكثير من الذكريات وأشعر معها أني تماديت في قسوتي وجفائي ولم أحتوي زوجتي منذ البداية، شعرت بكلماتها لكثرة ماقالتها هذه الأيام، بالفعل لم يُساعدها أحد وكانت تقوم بكل شيء على أكمل وجه ورغم ذلك لم يكن مني إلا توبيخها، ولم يكن من أمي إلا توصيتي بالمزيد رغم أن أمي الآن توصي زوج أختي بعكس ماقالته لي تمامًا، كيف لم أُميز بما عليّ فعله وبما عليّ سماعه وعدم الإكتراث به!، تماثلت لكلام أمي فازددت جفاءً وقسوة مع عزيزة وزاد البعد أميالًا ولم أفكر للحظة هل ما أفعله صحيحًا أم خاطئا.

المُضي خلف مايُملى علينا دون تمييز الجيد من السيء يُعرض حياتنا للانهيا مع من نحب، لا أحد يستطيع الحكم على حياتنا وكيف تسير بخطى مستقرة سوانا نحن لذا علينا أن نقرر نحن فقط كيف نتعامل وكيف نحكم على الأمور وكيف تسير حياتنا ولا نعطي الفرصة لكائن من كان أن يتدخل بإفساد تلك العلاقة.

في الصباح جاءت عزيزة ومعها حماة غادة فاستشاطت أمي غضبًا ونادتني وإياها خارج الغرفة لكن عزيزة تأخرت بالداخل، قالت أمي:

– لو لم تشكم زوجتك وتُؤدبها وتُعلمها احترام أمك فأنا غاضبة عليك ماتبقى من عمري.

قلت:

– ماذا حدث لكل هذا يا أمي؟

– تتحداني تلك المُهملة مُعدمة الأهل، تتحدى رغباتي وتتضايقني، لأنها تأمن غضبك.

– اهدئي يا أمي الأمر بسيط.

– اسمع يا حازم منذ جاءت عزيزة زوجة لك ولم تذهب مرة لأهلها غاضبة أو شاكية، إذا مهما فعلت بها فلن تذهب وستبقى لذا أدبها وأنر أمامها طريق حياتكم وفق ماتريده أنت، لا تترك لها زمام الأمور، وإن تمادت في حماقاتها هددها بالطلاق ستتراجع ككل مرة، فهي تخاف العودة لأهلها.

خرجت حينها عزيزة فقالت أمي بغضب بعد مشادة كلامية:

- خذ زوجتك وعد للقاهرة.

بهدوء شديد عُدنا للقاهرة والغريب أنها عند وصولنا توجهت لغرفة نومنا الكبيرة وليس لغرفة الصغير التي اعتادت النوم فيها منذ أشهر، وبدأت في وضع ملابس الصغير بالدولاب، قلت مُتعجبًا:

- ماهذا؟

- هذا حق طفلي أن ينعم بحنان والده ويشعر به وينام جواره ويزداد تعلقًا بك كلما اقترب، ألم تُلاحظ حبه لك كلما اقتربت منه.

هذا ماكنت أتمناه منذ البداية، لكن لا أريد أن تضعني هي أمام الأمر الواقع، تتعمد الآن فرض رأيها وما يُعجبها فقط دون العودة إلي ومُشاركتي القرار، قلت مُتأففًا:

- اعتدت النوم وحدي.

قالت:

لكنه يحتاجك.

من جديد تضغط على قلبي بما يلامس مشاعري، ما وجدت سوى قلب الطاولة للتملص من الموقف:

- هل تعتقدين أن ما حدث بالاسكندرية سيمر على خير!

ثم زدت موبخًا لما لمست خوفها:

- ماذا أردت من كل هذا؟

قالت:

- أردت سعادتنا.

من جديد تتحايل عليّ، قلت ساخرًا:

- أي سعادة وقد غضب أمي وطلبت ذهابنا لشدة ما ضايقتها! تُريدين أن تحل القطيعة بيني وبينها ويُصبح الوصل بيني وبينك فقط!

قالت بمكر:

- ماأردت سوى دوام الود بين الجميع.

قلت غاضبًا:

- تكذبين يا عزيزة.

ثم خرجت من المنزل تاركًا خلفي كل شيء يُحاول التأثير على مشاعري، لا أدري ماذا حلّ بعزيزة التي كانت تبكي فور حديثي معها بنبرة مرتفعة! الآن صارت ترد وتتحدث بهدوء شديد، أصبحت أقوى! ماذا يُضايقني إذًا ألم أكن أريد امرأة قوية أستند عليها! لكنِ اعتدت تلك الضعيفة التي أملي عليها كل شيء فتنفذ دون نقاش وتعتذر طوال الوقت، ما كان يُضايقني منها أصبحت أتمناه الآن، كنت أتجول بسيارتي لا وجهة لي فلا أصدقاء يحملون عبء الحياة والضيق عني ولا أقارب يتعافى المرء بصحبتهم، عدت للمنزل بعد ساعات ودخلت ودفعت الباب بقوة لأثبت قوتي وشدتي فكان العطر يُعطر المكان والطعام المحبب مرصوص على السفرة وقد جاءت وكان الصغير يبكي قالت:

– كان نائمًا لكن يبدو وأنه شعر بقدومك فأراد الترحيب.

تخللت نفسي بعض المشاعر الهادئة الجميلة من الجو المحيط ومن كلماتها التي داعبت قلبي، فعدلت عن شجار كنت أريد الخوض فيه، ثم ناولتني الصغير لتُحضر باقي الأطباق إلى السُفرة، سكت الجميل فور أن حملته وصار يُطالعني ويحرك يده الجميلة في الهواء في حركات بريئة جعلتني أبتسم ثم أضحك رغمًا عني حتى أني بدأت أغني في أذنه دون أن تلحظ هي ذلك.

جاءت من جديد تحمل كوب عصير الليمون بالنعناع وقالت:

– الجو شديد الحرارة بالخارج هذا سيلطف جسدك.

تُحاول تخطي الأمر وكأن شيئًا لم يكن لتجعل من حياتها تسير كما تريد قلت مُوبخًا:

– لست بطفل صغير لتعتقدي أن تلك الحركات ستخمد الغضب بصدري من تصرفاتك.

– تصرفاتي!

وضعت الصغير جانبًا ثم وقفت قُبالتها:

– تغيرتِ ومالي طاقة بذلك!

– هي الأمومة ومشاعر المسؤولية تجاه توفير كل سبل الراحة والسعادة لطفلي وكنت أتمنى لو تُقدم له ما أقدم فهو يحمل اسمك ويحبك كثيرًا ألا تشعر؟

تُحاول طوال وقتها أن تُظهرني مُقصر، غضبت:

- لم أقصر في حقك أو حقه.

قالت في حزن:

- وما أدراك هل دخلت لنفسي وعرفت ما ينقصها وما تحتاجه؟

- البيت مليء بكل شيء ولا ينقصه شيء.

قالت:

- هل الحياة طعام وشراب في نظرك؟

لا أدري ماذا تريد أن تقول فإن لم تكن الحياة طعام وشراب وتلبية مانحتاجه فماذا ستكون، قلت لها ذلك فقالت:

- أليس الحب من الاحتياجات؟ الحنان؟ الود؟ الكلمة الطيبة؟ الربت على القلوب بكلمة تُهون مُر الحياة، الاهتمام بالصغار واحتضانهم؟ أليس من حقي وابني أن نرى في عينك الحب واللهفة؟ لم تكن الاحتياجات يومًا هي الطعام والشراب فالود أهم بكثير.

من جديد تتهمني بالتقصير، كلماتها أحيانًا تجعلني أعيد التفكير في أمور كثيرة لكن لو أيدتها لتمادت ورمت على عاتقي كل شيء وكل تقصير كأنها لم تُخطئ يومًا، قلت في شدة:

- لازلتِ ترددين كلامهم وتختلقين المشاكل، كنا نعيش كما نحن مرتاحين قبل عصيانك هذا الذي لن يعود علينا إلا بالخراب.

قالت بصوت يختنق بكاءً:

- كنت وحدك مرتاحًا يا حازم ولم أتذوق أنا الراحة، كنت أنام باكية فيبكي ابني لأجلي، كنت متعبة كل التعب بعد ولادتي وتحاملت على نفسي كيلا أحملك مالا تحب فلم تُقدر ذلك وها قد رأيت بنفسك أختك المتعبة وشفقة أمك عليها، كنت مرتاحًا ولم تشكرني يومًا على تسخيري كل شيء لراحتك رغم كل تعبي وكنت دائمًا تتهمني بالتقصير في كل شيء.

آلمني ما قالت واعتصر قلبي لما قالت فلا أنكر أن زيارتنا لأختي غيرت مفاهيم كثيرة بداخلي وما رأيته هناك أثبت لي أني بالفعل قصرت معها، لكن أخاف أن أؤيدها فتصبح كزوجة أخي وتغضب عليّ أمي، لا أستطيع حياة دون أمي لكنِ لا أستطيع أيضًا حياة شديدة الكآبة والتقصير كهذه، ربما تذهب عزيزة وأنا أشتد قسوة عليها كل يوم، لكن من المستحيل أن تذهب طالما قالت أنها لا ترتاح عند أهلها كانت تُخبرني بداية زواجنا عن راحتها الشديدة في بيتنا لأن لا أحد يتدخل في حياتها كما كانت في بيتها، لذا مهما حدث ستبقى هنا وربما مع الأيام ومع الطفل يمر كل هذا وتتقبل كل شيء ونعيش في هدوء.

بكى الصغير فأنقذني من نقاش ماعدت أقوى على مسايرته والتملص منه ذهبت أحمله علّ ذلك يُخفف شدة الحديث فتسكت، ثم قلت:

- ألم يجهز الطعام بعد!

ذهبت تعد الطعام وظهر على وجهها بعض الراحة ثم جلسنا وتناولنا الطعام بهدوء ورحت أشاهد بعض الأخبار وقد أعدت لي الشاي وكان يبدو أني أشاهد الأخبار لكن كنت في غمرة التفكير ومراجعة كل موقف وذكرى

مرت، بدأت أقتنع بما تقوله عزيزة بما بدر مني من تقصير، دقّ الهاتف فكانت أمي تصب عليّ الكثير من التوبيخ قالت:

– هل ارتاحت زوجتك وقد توطدت علاقة الرجل بأمه واعتذر منها على ابتعاده لما صارحته بحزنها وطلبت منه القرب من جديد حد أنه قرر أن يُسمي الصغيرة على اسمها.

قلت مُهدئًا إياها:

– لم يحدث شيء اهدئي يا أمي.

قالت في غضب:

– تمكنت المرأة من حياتها حتى أنها تعرض عليّ الآن أن تعتني بها هي بمنتهى المكر وتحمل الطفلة طوال الوقت.

قلت:

– لكنها لن تُؤذي غادة بذلك بل لعل غادة تزداد راحة براحة زوجها ورضا أمه عليه.

قالت:

– زوجتك الغبية هي السبب ليتها ما أتت!

قلت:

– لم تقصد يا أمي.

استاءت أمي أني أدافع عن زوجتي ولم يحدث أن فعلتها من قبل ولا أدري لمّ فعلت، أغلقت الهاتف بوجهي فغضبت لغضب أمي وقلت بنبرة غاضبة:

- سببتِ الكثير من المشاكل ليتنا ما ذهبنا.

قالت في هدوء كأنها المجني عليها:

- لم أفعل سوى ما أتمنى عودته لي لنهنأ بالحب والود.

انتفضت:

- أي هناء وأمي غاضبة عليّ.

لكنها ببرود شديد تملصت من النقاش قائلة:

- هل أحضر عصير بارد.

تركتها وذهبت أبدل ملابسي للخروج من البيت لكنها استوقفتني تطلب بعض احتياجات الصغير، فذهبت وأحضرت ما طلبت وتجولت قليلًا على قدمي أفكر من جديد، يكاد رأسي ينفجر لكثرة الكلام وكثرة اتهامي بالتقصير والأحوال المتناقضة بالاسكندرية، رحلة الاسكندرية ماكانت إلا وجع رأس للجميع ولي أنا بالذات، لكن رغم أنها أحدثت الكثير من المشاكل إلا أنها أظهرت لي كثيرًا مما غاب عني، لكن لم أقصر وحدي قصّرت هي أولًا بحقي، لكنِ تماديت في الجفاء والقسوة لكنها الأخرى تمادت في العناد والابتعاد، عدتُ للبيت علّ عاصفة عقلي تهدأ وجلست أتابع الأخبار بعقلٍ شارد قدمت العصير بجانبه حلوى ثم أخذت الصغير وذهبت للنوم، انتهيت من العصير وأدخلت الصينية ولم أكن فعلتها من قبل لكنها بعض المساعدة بدلًا من نقاش جديد يُتعب القلب والرأس، لكن لم أذهب لغرفة النوم الكبيرة كيلا تعتقد أنها وضعتني أمام الأمر الواقع، فمهما كنت مخطئا

أو مقصرا فلن أُشعرها بذلك كيلا تعتاد اتهامي بذلك، ذهبت لغرفة الصغير وقد كانت رائحته تملأ الملاءة فنعمت بنوم هادئ باستشعار أنفاسه فيها، لكن التفكير لم يرحمني فكنت أستيقظ كل ساعة محاولًا النوم من جديد، شعرت أن الباب يُفتح وأنها قامت تتأكد من نومي هنا، لكنها أغلقت الباب بعدها تنفر ثم ذهبت.

في اليوم الثاني حدثتني كم نام الطفل بهدوء ولم يقلق لأنه نام في غرفتنا واستشعر فيها الهدوء والأمان، كلماتها أسعدتني ومضى اليوم هادئًا، وفي فجر اليوم الثاني أيقظتني للصلاة تُنبهني لضرورة محافظتي عليها والذهاب للمسجد ليعم الهدوء وننعم بالبركة في حياتنا، سعدت كثيرًا بذلك ولما عدت من الصلاة عدت للنوم مرة أخرى وفي نيتي أن أعود اليوم من عملي وأدعوها لعشاء نتناقش فيه ونكسر روتين الحياة التي أصبحت مملة مليئة بالتوتر والتراكمات، تذكرت حينها تلك القصة التي قرأتها ذات مرة عن أثر التراكمات في حياتنا وكانت القصة:

قررت خطيبتي فض الخطبة قُبيل عقد القران بشهر واحد اثر مشكلة بسيطة جدًا، مما أثار غضب أهلي وبدأوا بالبحث عن عروس جديدة، وشجعني أصدقائي على تلك الخطوة وأنها كما أهانت رجولتي سأهين قلبها وأرتبط بأخرى لأُشعرها أن فراقها أمر عاديّ وأنها هي من خسرت وليس أنا ، بالفعل وخلال أسبوع قمت بخطبة فتاة اخرى تدعى سميرة.

في الأسبوع الأول دعتني سميرة وأهلها للعشاء، ويومها جلست

بصحبة رفاقي ونسيت الموعد تمامًا واتصلت بي كثيرًا ولم انتبه أيضًا لهاتفي إلا بعد عودتي متأخرًا، فلما حادثتها في اليوم التالي قالت في ضيق:

– كيف تنسى موعدًا هام؟ وكيف لم ترى هاتفك لطوال اليوم ولم تحادثني؟

أجبتها بهدوء كعادتي:

=كنت مشغول... لماذا تفتعلين المشاكل من لا شيء.

– ألا تراها مشكلة بالفعل؟!

=لا نسيت ولم انتبه.

– كان عليك الاتصال بأهلي والاعتذار وعدم تتفيه الأمر هكذا.

فكرت قليلًا بكلامها وقمت بزيارتهم مساء يومها ومر الأمر على خير.

في الأسبوع الثاني كان لديها اختبار لمادة صعبة فتركتها تذاكر ولم أحادثها ليومين كيلا تتعطل ولأنها متوترة جدًا، وبعد الإمتحان حادثتها:

– كيف كان امتحانك؟

=جيد.

– مابك؟

=لمّ لم تحادثني ليومين؟

– أعلم أن مزاجك مستاء لخوفك من الامتحان.

=أليس من المفترض أن تهون عليّ، أن تهدئني، أن تمنحني الثقة وبعض التفاؤل أم تتركني بين خوفي من الامتحان وبين استيائي من إهمالك؟

- لم أقصد الإهمال لكن تركتك تهدئين فقط!

=كنت أحتاج طمأنة فقط لأشعر أنك معي وقت الحزن.

- معكِ حق.

غيّرتُ مجرى الحديث وبدأت تتحدث عن أمور أخرى وكأن شيء لم يكن.

في الأسبوع الثالث حدثتها بشأن اختياري لبعض الديكورات بشقتنا فتضايقت كثيرًا وأخبرتني أنه كان عليّ الأخذ برأيها ومشاركتها في هذه التفاصيل:

- وددت أن تكون مفاجأة لكِ باختياري الأفضل.

فتقبلت الأمر ولم تجادل وقررت أنا أخذ رأيها في كل صغيرة وكبيرة بعد ذلك.

كانت في كل مشكلة تقول لي:

=مقتنعة أنا جدًا بالحديث دائمًا عما يزعجني لنحاول حلّه معًا، لا أحب أن نستمر وبداخلي تراكمات بسببك قد تُعكر صفو علاقتنا، لذا أُفضل الحديث.

تزوجنا وهذه قاعدتنا الأساسية الحديث عما يزعج أحدنا من الطرف الآخر لنحاول حلّه معًا.

عرفت حينها فقط ما جعل خطيبتي السابقة تتركني رغم ما كان بيننا من حب، التراكمات فلا أذكر أنها أخبرتني مرة عن سبب تغير مزاجها، كثيرًا ماكنت أنشغل عنها بالعمل لكنها لم تُواجهني بحقيقة إهمالي فظننته شيء

عاديّ، حتى يوم نسيت عيد ميلادها ولم أتذكر إلا بعد اسبوع لم تخبرني هي اطوال هذا الأسبوع عن سبب حزنها وكلما سألتها تقول لا شيء، ، ملأت نفسها بالتراكمات تجاهي حتى لم تعد تحتمل لذا افترقنا.

(التراكمات تأكل الروح وتُفرق العلاقات مهما كانت قوية لذا لا بد من الحديث والبث عن ضيق النفس).

هذه القصة عالقة في ذهني منذ قرأتها لكنها تنطبق الآن كثيرًا على مايحدث بيني وبين زوجتي، ولا أريد أن تنتهي العلاقة بيننا بسبب ذلك لذا سأحاول لأجل أن تهدأ علاقتنا وتصبح حياتنا طبيعية بدلًا من سيرها نحو الأسوأ خاصة وقد اتضحت لي الكثير من الأمور.

في الصباح كانت تتحدث في الهاتف مع أمها لكن لم أفهم من الكلام شيئًا مع بكاء الصغير، وعلى الفطور حملت الصغير الذي اشتقته وربما اعتدت على حمله وشعوري الجميل عند حمله، قالت:

- ستأتي أمي اليوم لقضاء عدة أيام.

ضاق صدري:

- عدة أيام!

- نعم فقد اشتاقتني.

يالله ستبدأ المشاكل على حق وأنا الذي اعتقدت أن اليوم سيصبح مميزًا أفسدته عزيزة بحركتها تلك وكما ضايقني ذلك كثيرًا، اشتاقتها أمها وتبدو

عليها السعادة إذًا مع تغييرها العجيب تغيرت نحوهم أيضًا وستقترب منهم من جديد، قلت وأنا أحتسي القهوة بهدوء:

- إذًا هي فرصة جيدة.

تهللت أساريرها واعتقدت أني أقصد الترحيب بأمها، قالت:

- شكرًا لأنك تُعينني على الود مع أهلي.

قلت:

- شكرًا لكِ أيضًا لأنكِ منحتني الفرصة نفسها دون أن أترككم وحدكم.

عبس وجهها وتجهم فأردفت مُوضحًا:

- ألحت أمي كثيرًا بذهابي للاسكندرية وسأذهب بعد العمل.

ثم وضعت الصغير على الأريكة وتكاد من الصدمة أن تصرخ من جديد فاتجهت سريعًا صوب الغرفة أبدل ملابسي، جاءت تتبعني:

- أتأتي أمي للجلوس معنا فتتركها وتذهب وهي المرة الأولى لقضائها معنا أيام؟

قلت بهدوء ولا أدري لمّ اختلقت هذا الأمر برمته:

- كما تُريدين الود والوصل مع أهلك أريد أنا الآخر.

بدأت في كلامها المعتاد بالتقصير في حقها ووصل أهلي وذهابها رغمًا عنها لأختي، وبعد أن انتهت قلت في هدوء:

- لا شأن لكِ بذلك كما تُقررين بنفسك سأقرر أنا.

- ماذا تقصد؟

- ألم تقومي بدعوة أمك دون العودة إليّ ومشاركتي الرأي والأخذ به بعين الاعتبار؟ تقومين بوضعي أمام الأمر الواقع هذا لن أتقبله يا عزيزة.

قالت بمكر:

- أردت الود والوصل وكنت أعدها كمفاجأة.

قلت بحسم:

- ليس من حقك أخذ قرارات تخص بيتي دون العودة إليّ كان من الأفضل أن نتشاور.

ثم ذهبت لعملي تاركًا إياها وأعلم أنها نادمة الآن لكن ما كان هذا إلا محاولة في مراجعة نفسها هي الأخرى ألا تتخذ قرارًا من دون العودة لي، إن كنت أفكر حتى اللحظة في كل ماقالته لي في السابق فعليها التفكير فيما أريد أنا الآخر ولو اعتذرت على مابدر منها اليوم سأعتذر عما كان مني، لكنِ لن أفعلها أولًا إلا قبل أن تعترف بكل أخطائها.

عدت للبيت في موعدي وكانت أمها تجلس حاملة الصغير، رحبت بها بهدوء يميل للبرود وقد تعمدت ذلك كي تستاء أمها وتذهب لأني أخاف كل الخوف من بقائها وتدخلاتها في حياتي وخرابها، يكفي تدخلات الجارة وزوجها التي نعيش حتى الآن في نكد بسببها ذهبت أبدل ملابسي فتبعتني قائلة:

- ماذا تفعل؟

- أعد ملابسي للذهاب بعد الغداء.

قالت بحزن:

– هل تبتعد عني وعن الصغير ؟

قلت بحسم:

– أنتِ من بدأتي.

كنت كمن انتهز فرصة وقوعها بالخطأ لقلب الطاولة بأكملها ولتتوقف عن كل ماكان في الأيام السابقة، قالت:

– وها أنت فعلت كما فعلت أنا اتخذت قرار الابتعاد وحدك.

قلت في غضب:

– أنا رجل أفعل ما يحلو أما أنتِ عليكِ العودة لي في كل قرار.

قال في مكر:

– حسبت أني أعد مفاجأة لأنك تُحب تقدير أهلنا.

أغلقت الحقيبة:

– سأذهب بعد الغداء.

تجمعنا على السفرة وكانت عزيزة في روح غريبة هادئة جدًا علّها تخاف لحظة خروجي وغضب أمها وربما نادمة على اتخاذ القرار وحدها واتهامها بالخطأ بعدما كانت تتهمني طوال الوقت، قالت أمها:

– كيف حال والدتك وأختك؟

قلت:

- بخير.

- أبلغهم سلامي أعانهم الله.

لم أرد فأردفت:

- كيف حال العمل؟

- بخير.

ظهر عليها الضيق من إجاباتي وكان هذا ماقصدته علّها تُقرر الذهاب بعد الغداء، قالت لابنتها:

- الطعام لذيذ سلمت يدكِ.

قالت عزيزة التي لم تلمس الطعام:

- بالهناء والصحة.

بكى الصغير فقامت أمها مُسرعة تحمله وقمت أنا لأذهب، وخرجت أجر حقيبتي أمامها قالت:

- إلى أين؟

قلت:

- للاسكندرية.

قالت متعجبة:

- ألم تأتوا بالأمس؟

تتدخل المرأة في حياتنا وقد أخبرتها عزيزة عما يحدث، لم أبالي لها وقلت:

- وسأذهب الآن لقضاء بعض الأيام.

قالت المرأة:

- ولمّ نجلس هنا طالما صاحب البيت غير مرحب بنا، هيا يا عزيزة اعدي ملابسك لتأتي معي.

استأت كثيرًا وشعرت بضياع كل شيء لو حدث هذا، فقلت مهددًا وأنا أعرف أن عزيزة تخاف التهديد وتخاف الفراق:

- لو ذهبتِ فلا عودة لكِ هنا مرة أخرى.

قالت وقد انهمرت دموعها:

- هكذا بسهولة يا حازم!

قالت أمها:

- هو لا يقدرك ولا يكترث بكِ فلمّ تُعاتبي.

هاهي تتدخل وتسبب الخراب بيننا تركتها وذهبت ولم أعلق علّها تخاف زيادة غضبي وتفهم أن أمها تتدخل وتهدد حياتها وأنها ستعود لحياة التدخلات والتحكمات فتبقى، خرجت ذاهبًا وأنا مُتأكد أنها لن تذهب وستبقى وستبكي كثيرًا لما حدث مني وستذهب المرأة بعدما رفضت ابنتها الذهاب، ذهبت لإحضار حلوى وبعض الزهور وانتظرت لبعض الساعات ثم عُدت مساءً أحمل ما أحمل لأُراضيها وقد بقيت من أجلي إذًا هي تُحبني ولا تستطيع فراقي، سأتحدث معها كثيرًا وأعتذر لها عما كان وقد بقيت معي أنا،

لكنها هذه المرة لم تكن موجودة ذهبت عزيزة وذهب الطفل! طالما ذهبت إذًا تخافني أكثر مما كانت تخاف أهلها، وجدت الأمان عندهم من جديد!

هي المرة الأولى التي أدخل شقتي دونها منذ سنة مرت، البيت ميت لا روح فيه، شعرت بخسارتها لأول مرة، جلست أفكر في كل شيء وألوم نفسي كثيرًا، ليتني ما اختلقت أمر الذهاب ولا التهديد، زدت في كل شيء لأقصى حد حتى فقدت كل أمانها معي، لم أنم ليلتها والبيت يخلو منها ومن صوت الصغير، يخلو من محاولاتها ارضائي ومعاتبتي لكنِ كنت أزداد قسوة لأني أضمن بقائها فلم يحدث أن ذهبت لبيت أهلها وابتعدت عني لمعرفتها أنهم سيخربون حياتها ربما، الآن ذهبت ولم تخف من أحد سوى مني، تذكرت وجهها عند ذهابي كأنها ترجوا بقائي لكن لم أرحمها في اللحظة الأخيرة وتماديت في قسوتي وذهبت عنها فذهبت عزيزة.

في صباح اليوم التالي كان خبر وفاة عم حسين قريبي والذي كان السبب في زواجي من عزيزة، لو مات في أيام سابقة لما ذهبت للعزاء لأن العلاقة ليست وطيدة مع أولاده ولا العائلة بأكملها، لكن كانت فرصة للقاء والد عزيزة علّ الفرج يأتي، ليلة واحدة لم أتحملها دونها وشعرت أن الحياة توقفت مع ذهابها، التفكير لا يرحمني ولن يرحمني سوى بعودتها، هل أحبها حد هذه الدرجة؟ ليلة واحدة كانت كفيلة بأن أشعر بذلك؟ فماذا عن الليالي القادمة، ذهبت للعزاء فوجدت والدها يجلس محزونًا جلست جانبه فقام عن كرسيه بغضبٍ وذهب يجلس في مكانٍ آخر فتهامس الجميع وتلامز وشعرت بغضبٍ وضيقٍ شديد وأقسمت ألا أبادر بشيء مرة أخرى.

اتصلت أمي وبدأت في توبيخها:

– استحوذت عليك اللئيمة فأنستك حتى أن تتصل بي البارحة.

قلت بوهنٍ شديد وغضب أشد:

– يكفي يا أمي يكفي ما كان.

قالت:

– ماذا كان؟ والله لو حدث الكثير فلن تتحرك من مكانها مُعدمة الأهل تلك، كان زواجك منها دون شروط منهم في شيء كأنهم يُزيلون صخرة عن عاتقهم، ومنذ زواجها ولا علاقة تجمعهم فماذا سيكون منها تلك اللئيمة.

قلت:

– أخذها أهلها يا أمي، ارتاحي يا أمي، لن تعود لي مجددًا وقد خسرت ابني.

قالت وقد تراجعت:

– ماذا حدث؟

– حدث ما أردته المزيد من التهديد والوعيد فذهبت عندهم.

سكتت ثم عادت تقول:

– لا تتحرك لمراضاتها وإلا تمادت، كما ذهبت وحدها تعود وحدها.

لكن هذه المرة ومع كل ما حدث لن يسير الحديث وفقًا لما تُريده أمي، استجمعت قواي مع مزيج الحكمة والتريث لأتحدث معها وأواجهها بكل ما حدث في نفسي بسببها منذ نشأة أظافري.

أردفت:

- لمّ لا ترد؟

- لأني تماديت معها حتى هجرتني.

- وما المشكلة هل الحياة تقف عندها، هي لا تحبك ولا تتحمل غضبك إذا لا تستطيع تحمل المسؤولية.

- كفى يا أمي كفى.

قالت وقد ارتفع صوتها:

- تكفني عن الحديث، لا تتقبل عليها كلمة وهي التي رمت بك عرض الحائط لتتركك في حيرتك هذه؟

قلت غاضبًا:

- طالما سمعت كل نصائحك ولم أعصي لك أمرًا كيلا تحزني لكن في المقابل خسرت زوجتي وحياتي واستقراري، تماديت في الجفاء والقسوة حتى سئمت، تحملت مالم يتحمله غيرها، لكنِ لم أكف عن ذلك وتماديت حتى وصل الأمر مني أن تطاولت على أهلها يا أمي، انهدم بيتي ألا يكفي!

بكت وتنهدت:

- تتهمني الآن بخراب بيتك، أنا التي ربت وسهرت وعكفت على تربيتكم وحدها، أنا التي تحملت كل الأدوار وحدي الأم والأب والأهل، ثم ما علاقتي هل كنت آتيك وأرغمك على شيء؟ أنت من كنت تأتي شاكيًا منها ونافرًا من بيتك فأمليت عليك مايحفظ عليك حياتك معها، ماعلاقتي

بكل ما حدث هل كنت معكم، ماسمعت عنها منك إلا كل شكوى، كان يُضايقني أن أراكِ غير سعيد في حياتك، يُضايقني أن أراك غير مرتاح، يُضايقني أن مسكنك لا يحمل لك الحب ألم تكن هذه شكواك لي دائمًا!

بالفعل أنا من تسببت في هذا سكبت في رأس أمي وقلبها الشكوى والنفور من زوجتي لمجرد أمور بسيطة مما أغضبها وجعلها تكره زوجتي وتتعمد أذيتها وهي تظن أنها تساعدني، أنا المذنب وحدي كان عليّ أن أُميز مايمكن قوله وما لا يُقال، أن أحفظ أسرار بيتي وحياتي كما كانت تفعل عزيزة وكنا نتهمها أنها مُعدمة الأهل، كانت وحدها التي تُحاول استقرار البيت وأنا أنقل كل صغيرة وكبيرة لأمي ظنًا مني أني أبرها، لكن أي بر هذا الذي يتسبب في خراب البيوت، كان يُفترض وضع الحدود منذ البداية فالآن الجميع يرمي عليّ كل سبب، قالت وقد سمعت سكوتي:

– الآن وقد تركتك وتسببت في اتهامك لي فلا خير فيها أبدًا، كما ذهبت لأهلها تعالى إلى الاسكندرية بيننا.

من جديد يا أمي تستغلين ضعفي وترنحي في التفكير لتنهدم الأمور أم أنكِ شعرت أني أبتعد عنك بحديثي هذا معك، قلت بهدوء:

– لدي أعمال لا أستطيع تركها، سلامي لغادة وللجميع.

أغلقت الهاتف وصرت أتخبط يُمنة ويسرة أخطأت وحدي منذ البداية، ويوم قررت الشكوى لأمي عن كل أمر ضايقني من زوجتي تمادت هي الأخرى في نصائح مغلوطة لتغيظ زوجتي ظنًا منها أنها تثأر لي كما كانت

تفعل يوم كنت صغيرًا وهي تدافع عني وسط رفاقي، لكن مالم أفهمه سابقًا أني كبرت وأتحمل مسؤولية بيت فكيف أصبح كطفل ينقل لأمه كل صغيرة وكبيرة في حياته ويوم تخرب حياته بما اقترفته يده يرمي اللوم على عاتق الجميع مرة على عزيزة ومرة على أهلها والآن على أمه، وحدي المُخطئ، كان عليّ أن أحتوي زوجتي، لكن أمي أيضًا أخطأت يوم قررت الكيل بمكيالين فكما كانت تنصح زوج غادة بحفظ حياته مع زوجته دون تدخل أحد ومراعاة غادة أثناء حملها باللين من القول والفعل كانت توصيني بالقسوة كيلا تتمادى زوجتي، وامتثلت لأمرها خوفًا من حزنها كما حزنت من أخي الذي ابتعد.

لوهلة تذكرت أخي الذي لم يحدث أن التقينا أو تحدثنا منذ أشهر، وتحولت علاقتنا لجفاء شديد وقالت أمي أنه بسبب زوجته اللئيمة التي أبعدته وكانت تبكي دائمًا وهي توصيني ألا أفعل مثله، قررت زيارة أخي لا أدري لمّ لكن كنت أحتاج لمن أتحدث إليه دون أن يلومني كل اللوم ويتمادى في القسوة عليّ.

اتجهت لبيت أخي وكنا قُبيل المغرب فتح وقد غمرته السعادة لرؤيتي واحتضنني بقوة، كنت أخاف أن يتهمني بالتقصير والابتعاد المُفاجئ عندما حدث خلاف بينه وبين أمي، لكن رحمني أخي ولم يفعلها، العلاقات المُريحة والسوية هي التي مهما شغلتنا الحياة عنها وعُدنا إليها لم تُرهقنا بالسؤال الكثير واللوم عما كان بل تفتح لنا ذراعيها مُرحبة بقلوبنا واصلة الود من جديد.

جلسنا فجاءت زوجته مُرحبة تدفع بالأولاد الذين يتعجبون الضيف،

اقتربوا فسلمت عليهم وجلسوا جوار أخي يُمسكون بيده بود وحب كبير ظهر على الجميع، قالت زوجته:

- سأعد الغداء حالًا.

قلت:

- أشكرك جئت للجلوس قليلًا معكم والذهاب.

قال أخي:

- والله لا تذهب حتى تنضم معنا على الغداء وتقضي معنا اليوم.

قالت:

- أين زوجتك؟ ليتها حضرت معك وتعارفنا وجلسنا.

وجدت في عين أخي خجل لأنه لم يزرنا سوى مرة واحدة بداية زواجنا كغريب ولم يفعلها ثانية، قال:

- علّها حزينة ولها الحق لأن البعد قائم بيننا.

أخذت زوجته الأولاد معها للمطبخ لأن وقت الحديث قد حلّ بين الرجال دون داعي لتدخلات، قلت حزينًا:

- برأيك يا أخي لمّ حلّ البعد؟

قال:

- القرب كاد يُسبب الخراب.

- وهل البعد كان الحل؟

سكت فأردفت:

- هل أنت سعيد يا أخي أم أن هناك ماينقصك؟

- تنقصني العائلة يا أخي لكن خفت أن أخسر من جديد بيتي، لم أعرف الموازنة فاخترت من ظلمتهم في البداية لأعوضهم وعلّ الأيام تصل مانقطع.

ثم تنهد وأردف:

- كيف حال زوجتك؟

- بخير هي وابني.

- مُبارك عليك.

- لكن حلّ الفراق والخراب يا أخي.

جاء جانبي وربت على كتفي قائلًا:

- ستمر على خير.

- لا أريد أن أسلك مسلكك وأكسب سعادتي الزوجية على حساب قطيعة أمي.

قال غير مكترث:

- إذًا تمادى في الخسارة لتربح أمك.

ضاق صدري بحديثه، ثم قلت:

- أريد الوسطية يا أخي، أريد سعادتي الزوجية وبر أمي.

- أمك لن تكف عن التدخل في حياتك وخرابها مُتحججة بما تقوله دائمًا

وكأنها وحدها من ربت أولادها، وكأن الزوجات لا أهل لهم، لا أدري كيف تُفكر بهذا الشكل، طالما حاولت معها أن تعتبر زوجتي كابنتها خاصة وأن زوجتي حتى اليوم تشجعني على وصل أمي لكني نافر يا حازم، أخاف أن تتمكن من حياتي من جديد ولي أولاد لا أطيق خسارتهم.

قلت مُعاتبًا:

- لكن القطيعة ليست الحل، لا إفراط ولا تفريط، نصل أمنا ونضع حدودًا منذ البداية، نود أختنا في زيارات حتى لو بعيدة، أما أنت فقطعت الجميع يا أخي.

سكت يُفكر ثم قال:

- ماذا ستفعل مع زوجتك؟

- سأحاول من جديد، أنا من أخطأت وأنا من تماديت في إخراج كل حدث داخل بيتي لأمي حتى أمسكت هي بزمام بيتي وصارت تُحركني بحجة البر بها، لكنِ فهمت وتعلمت مُتأخرًا بعدما ذهبت زوجتي ونفر مني أهلها.

ثم أردفت:

- وأنت ماذا ستفعل مع أمنا؟

لم يرد وراح يُنادي زوجته ويحضر معها السُفرة ويرص الأطباق ثم دعاني للطعام فانضممت إليهم ونحن نتحدث عن طفولتنا وحياتنا قاصدًا أن أجمع الود والحب في قلبه تجاه حياتنا قديمًا علّه يُفكر في وصل أمي وأختي ونعود عائلة يجمع بينها الحب.

ذهبت للعزاء مرة أخرى على أمل اللقاء مع والد عزيزة وجدته فجلست مرة أخرى بجانبه، همّ بالنهوض من جديد لكن أمسكت بيده هذه المرة، قلت:

- أريد زيارتكم بالمنزل؟

قال:

- في الغد عصرًا.

ثم نهض مما جعلني أستاء من جديد أعلم أني أخطأت لكن بطريقته تلك سيرمون على عاتقي كل الأخطاء، ما كانت أخطائي إلا امتدادًا لأخطاء ابنتهم، فلمّ يُعاملني بهذا الشكل أمام الناس، ضقت كثيرًا بذلك حتى أني فكرت بعدم الذهاب بسبب طريقته التي ستكون أقسى حين أتحدث معه وأخاف أن تنفلت أعصابي، عدت يومها للشقة التي صارت ضيقة جدًا ومُنفرة لنفسي بعدما خلت من الأحباب، أحباب! نعم أحباب وما عرفت حُبها إلا في بُعدها، كأني لما اعتدت وجودها الدائم ضمنت وجودها دون أن أعلم أن وجودها يُعيد الحياة في صدري ويُعوضني عن الكثير، لكنها حالة الإنسان حين يضمن الشيء يتمرد عليه وما يشعر بقيمته إلا بضياعه من يده فيبكي عليه، هُنا على الأريكة كانت تنتظرني وهنا على السفرة كانت تُعد الأصناف الشهية، هُنا تنام مع الصغير لتريحني طوال الليل من بكائه وهنا تأخذه معها للمطبخ خوفًا عليه من شدة البكاء ورأفة بي لأرتاح بعد العمل، لم يكن قصدها أن تُبعده كما قالت أمي، أمي! آه يا أمي وآهات احترت في كل

شيء حتى ما عُدت أعرف مالمفترض أن يحدث! هل كلام أخي هو الصحيح أم كلامي الأصح، كيف سأجعل من العلاقة أن تعود قوية من جديد وقد عاتبتها عتابًا شديدًا، ماذا سيحدث لو علمت محاولاتي في عودة زوجتي؟

دقّ الهاتف فكانت غادة، قالت بعد السلام:

– هل يصح ما كان منك في حق أمي؟

– هل يرضيك ما حدث في حياتي بسببها؟ هل كنتِ لتقبلي أن يجرك زوجك معه لمحافظة أخرى لخدمة قريبة له وسط تحكمات أمه وتوافقين؟

تلعثمت فأردفت قائلًا:

– هل تقبلين أن يزهدك زوجك ويجلس عند أمه كل الأوقات وتكون كلمتها هي الآمرة والناهية في بيتك ولا شأن لكِ بشيء سوى الخدمة ورغم كل شيء يقسو وتسكتين لتمر الحياة؟

سكتت فزدت قائلًا:

– الغريب أن أخي حدث معه نفس الشيء فانسحب تمامًا من حياتنا جميعًا، ففعلت أمي معي نفس الشيء ولم تخف من نفس النهاية لأنها لا ترى أنها أخطأت، وعلى العكس تمامًا تنصحك بالعكس أي مكيال هذا يا غادة.

قالت:

– مهما كان هي أمنا ولا يصح اتهامها.

قلت:

– كان الخطأ أننا كنا نخاف مصارحتها أنها تسير على خطى خاطئة، كان علينا أن نخبرها أن أخي مافعل هذا إلا بعد خراب حياته لكننا وقتها أيدنا حديثها واتهمناه بالجحود، فتمادت وصارت تفعل معي ذلك لأنها لا تشعر بأي خطأ.

قالت:

– اهدأ يا حازم.

أغلقت معها الهاتف وذهبت للنوم مباشرة لأني لا أريد أبدًا التفكير في شيء، لكن لم يحدث أن نمت، ضميري يؤنبني حيال الجميع، لا أدري ماذا حدث بي فجأة؟ لا أعلم هل ما أفعله صحيح؟ من هذا الشخص الذي يتصرف بكل هذه الأفعال؟ أين كان هذا الشخص سابقًا؟ كان يقبع داخلي وأُخرسه عن الحق خوفًا!

في الصباح ذهبت لعملي مهموما يكاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير واللوم والعتاب، كان كل من يُقابلني ويتحدث إليّ لا أُبادله أي حديث، وسرعان ما مر اليوم وذهبت مُباشرة لبيت عزيزة، دخلت إلى الصالون وكم أحزنني ذلك فقد أعادوني غريبًا يُعامل برسمية شديدة، أحضر والدها لي الصغير فحملته أحتضنه وكنت أشتاقه كثيرًا، قال والدها:

– رغم ما فعلت بابنتنا إلا أن كرمنا كبير.

لم أرد فلم أعلم بما أجيب عليه، زاد قائلًا:

– رغم ما كان منك في حق زوجتي وابنتي التي استأمنتك عليها إلا أني استقبلتك لأسمع ماعندك.

ضاق بي كثيرًا وغضبت كثيرًا من اللوم الكثير والعتاب الأكثر وشعرت بإهانة ولم أكن بالأساس على مايُرام لقلة النوم وكثرة التفكير وشدة الخصومة مع الأهل، قلت غاضبًا دون أن أشعر بنفسي:

– ماجئت لعتاب ولا لوم جئت لأخذ زوجتي وابنتي وعليها الطاعة.

دخلت أمها مسرعة وأخذت من يدي الصغير الذي بدأ في البكاء خوفًا، وتراجعت فجأة كيف قُلت هذا؟ ستزداد الأمور سوءًا بتسرعي، من جديد فقدت صوابي رغم كل محاولتي الهدوء، لكن الرجل كان أنضج وأحكم بكثير مما توقعت، كانت عزيزة دائمًا تُصور لي أنه شديد الصعوبة واللوم والاتهامات لها وهي صغيرة مما أخافني من تدخلاته فتخرب حياتنا كما تدخلت أمي، قال بهدوء:

– أحضري الليمون يا أم عزيزة.

قلت:

– آسف لم أنم منذ يومين.

قال:

– فهمت ذلك من شدة السواد تحت عينيك.

قلت بهدوء:

– أعتذر عما بدر مني في حق أم عزيزة، خفت فقط أن تذهب عزيزة وأفقد وصلها من جديد.

قال مُعاتبًا:

– فإن كنت تحبها كما تصف الآن فلمّ كل ماكان منك في حقها؟

ماستطعت الرد لكنِ قلت شاكيًا:

– هي أيضًا أخطأت معي ومع أهلي بداية حياتنا وتمادت يا عمي، لم تكن أفعالي إلا ردًا لأفعالها.

قال بهدوء وهو يناولني العصير الذي وُضع أمامي:

– ليس مبررًا يا بُني كان عليك احتوائها فأنتم في بداية الزواج وليست الحياة حرب أو محكمة يتنصر فيها الأكثر قوة الحياة شدة ولين أخذ وعطاء، تربت طوال حياتها بطريقة وتربيت طوال حياتك بطريقة، شخصان مختلفان يجتمعان تحت سقف واحد لكل منهما طبع يختلف كل الاختلاف عن الآخر كيف لهما أن يتناسقا سريعًا، الخلافات وحدها من تُحدد قوة العلاقات، كل خلاف يُقوي العلاقة لأنك تفهم مايُضايقها وتفهم ما ضايقك فتبعد هي عن الإقدام عليه وتبتعد أنت الآخر، مرة بعد مرة وسنة بعد سنة يعم الهدوء والاستقرار، السنوات الأولى من الزواج كلها خلافات لكنها تحتاج لرجلٍ يحفظ الود بالهدوء وعدم التسرع ولامرأة حكيمة تهدأ ولا تزيد الأمور اشتعالًا، الحياة تحتاج مُشاركة كما تعمل طوال يومك خارجًا وتلقى الكثير مما يُضايقك هي طوال اليوم بين حيطان البيت وحدها فالمفترض أن تجتمعا آخر النهار لتهون عليك الضيق وتهون عليها الوحدة.

كنت أسمعه بكل اللين والود وأحتاج بالفعل أن أسمع تلك النصائح التي تبني البيوت ولا تخربها، قال من جديد:

– الأهم من ذلك ألا تخرج أسرار بيتكم خارج عتبة الباب لأنكم بعدها

ستطيبان ويعم الود بالتفاهم لكن من وصلت لهم الأخبار لن يطيبوا أبدًا لأنهم لم يتفهموا ماحدث بينكم من عتاب وتفاهم، بجانب أن للحياة الزوجة قدسية ولها سرية بين الزوجين أن يظهرا دائماً أمام الناس بشكل جيد وناضج حتى لو كانت الخلافات مُحتدة داخل بيتهم.

لم أفعل سابقًا أي شيء من هذا ولذا تحطمت الحياة بيننا، زاد قائلًا:

– الرجل بحق لا يُهدد زوجته بالفراق طوال الوقت، فحتى لو فعلها وفارقها فلها أهل لا يقبلون على ابنتهم دمعة واحدة وهي العزيزة والحبيبة عندهم.

قلت معتذرًا:

– لذا قررت أن أجلس مع عزيزة نتحدث ونتعاتب علّ الحياة تعود بيننا أفضل.

هكذا سار الحديث بيني وبين والد عزيزة الذي مهد لي الأمور وأنار لي الطريق وشعرت بتفاؤل كبير نحو وصل زوجتي في اقرب وقت.

عتاب الأحباب كسحب شوكة من الوجدان والروح.. يؤلم بحق.. لكن طالما كان وجودها كان أكثر ألما

– أبو الطيب المتنبي.

(جلسات عتاب)

عاد حازم من بيت عزيزة إلى شقته يُفكر كثيرًا فيما سيقول وفيما سيحاول شرحه فعلى أساس هذه الجلسة ستتحدد ملامح حياته كلها، لكنه فكر أيضًا في علاقته بأمه لا يُريد أن يفعل كأخيه يحفظ لها فضلها رغم كل ما حدث، لكنه سيزيد ظلمها لو تركها هكذا تعتقد أن كل ماتفعله صواب وأن كل ماتقوله واجب التنفيذ، عليه أن يشرح لها كما عليه أن يُناقشها فيما تقول، تناول هاتفه اتصل بغادة يفتح طريقًا بطريقة غير مباشرة للحديث مع أمه، قالت:

- ذهبت بعد المغرب.

تلعثم بوضوح قائلًا:

- لمّ؟

- ما وجدت في بقائها من ضرورة خاصة وأن مزاجيتها شديدة الاستياء وحماتي تقوم على كل ما أحتاج فاطمأنت وذهبت.

ثم أردفت:

- بكت كثيرًا مما صدر منك البارحة.

حاول تماسك نفسه ثم قال:

- ربما انفعلت قليلًا لكن كان كل الكلام صحيحًا يا غادة، لا تفعلي فعلتي في السابق بأن أؤمن على كل كلامها وأظلم الجميع طالما هم من وجهة نظرها سيئين، أخطأنا في حقها لما سايرناها دون أن نناقشها ما إذا كانت طريقتها خاطئة أم صحيحة.

سكتت غادة ولم تُعقب، فهم سكوتها فقال:

– لن أقول عزيزة لكن سأقول مايخصك، ماذا فعلت معكِ حماتك منذ يومك الأول سوى كل الخير والود وما كان جزاؤها إلا القطيعة والبعد عنها فقط لأن أمنا لا ترتاح لها وتشعر أنها ماكرة، وسرعان مانجرفنا جميعًا كُرهًا وتجاهلًا للمرأة وكنتِ أنتِ أولنا حتى تسببنا في مقاطعة ابنها لها وهو وحيدها الذي لا تتمنى من الحياة سواه، ورغم كل ما كان يوم احتجتِ للمساعدة ووجدت ثغرة للولوج لعالمك من خلال عزيزة لما عاملتها برفق كانت أول من يُساعد ويرحب بمنتهى الرضا مُتناسية كل ما كان.

قالت:

– صدقًا ما قلت أخطأنا في حقها وهي الأصيلة الطيبة.

قال ناصحًا:

– لن نندم على ما فاتنا يا غادة المهم أن نخط أحرف الحياة القادمة حياة تقوم على الود والوصل والحب لكل من ظلمناه وتسببنا في حزنه، ما دمنا نعيش علينا أن نُحافظ على ما تبقى كيلا يضيع كل شيء، عادت المرأة وتناست ما كان وربما بالفعل نسيته اثر قلبها الطيب جدًا عليكِ أن تُعوضيها وتكوني لها ابنة، تُعيني زوجك على طاعته لها، تندمجين معها وتعامليها كأمك تمامًا فهي تستحق ذلك بجدارة.

قالت غادة:

– سأفعل يا أخي.

أغلقا المُكالمة وراحت غادة تُفكر في كلمات حازم التي ضغطت على جرحها وهي

التي من يومها الأول تتمنى وجود حماتها الطيبة في حياتها لكن تخاف أمها وتخاف أن يقع ما تُحذرها منه من تدخلات المرأة في حياتها وتسببها في خراب البيت، وامتثلت لكلام أمها دون تفكير خشية غضب أمها على حساب ظُلم كبير لحماتها الطيبة، الآن لن تُكمل في ذلك وهي ترى المرأة تُمسك بطفلتها تهتم بها كل الاهتمام ولا تكف عن إعداد سبل الراحة ماستطاعت لغادة، لا تستحق سوى الحب والاخلاص والعشرة الحسنة، بالفعل أخطأت يوم امتثلت لحديث أمها بقلب أعمى دون أن تُميز هي وتفهم النفس البشرية الطيبة التي أمامها، قالت لحماتها:

– تعبتي اليوم كثيرًا معي يا غالية ارتاحي قليلًا وناوليني الطفلة.

تهللت المرأة وشعرت بصدق حديث زوجة ابنها فانتفضت عزيمتها من جديد وراح تعبها مع كلماتها الطيبة، فقالت:

– ارتاحي أنتِ فأنتِ نفساء أنا بخير.

قالت غادة:

– كان الحمل شديد الصعوبة وحال كثيرًا بين النزول والجلوس معكِ وكنت شديدة الغضب على عكس عادتي والحمد لله الذي وهبني الصغيرة بصحة وعافية لأسترد صحتي ولا أكف عن الجلوس معك والحديث معك بصحبة الفطير والشاي.

ضحكت المرأة بفرحة لم تسبق أن سمعتها غادة منها، وضحكت غادة لسعادة حماتها وهنأت روحها وقررت ألا تقطع الوصل من جديد وأن توصل الود مع الجميع.

♡ ♡ ♡

في الصباح كانت وجهة حازم الأولى إلى أمه فتحت بابها بعين أرهقها البكاء ووجه أنهكه السهر والتفكير في كل ما قاله ابنها البريء الذي قسا عليها بشدة وتناسى كل تربيتها وتعبها وسهرها وحدها طوال سنوات مضت، بعدما تركها ذاك الخسيس الذي تزوجته وأحبته وأعانته على الحياة وقد كان عمله بسيطا لا يكفي لفتح بيت فتولت وحدها كل المسؤولية وعملت وصار البيت مسؤوليتها وانسحب هو تمامًا من دفع جُنيهًا واحدًا في البيت حتى اعتادت على حمل مسؤولية كل شيء وحدها وخافت أن تُعاتبه فيمل منها ويتركها.

وذات يوم نامت فاستيقظت على فراغ البيت منه تمامًا ولازال الأولاد صغارًا لا يفقهون ماذا يعني فراغ البيت من والدهم فجأة، ولم تمضِ أيام بسيطة حتى وصلتها ورقة طلاقها بمنتهى الوجع، بكت حين استقبلتها وجلست أمام باب الشقة تنتحب والتف من حولها الأبناء لا يفهمون لمّ تبكي أمهم؟ ماذا أصاب تلك القوية التي لا تعرف الضعف؟ ماذا حدث لها؟ سألوها فما أجابت! احتضنوها فخافت أن تبدو ضعيفة أمامهم وما عاد لها سواهم وما عاد لهم سواها، انتفضت من الأرض واقفة شامخة مسحت دموعها وذهبت تُعد العشاء، لم يفهموا تصرفها تذبذبت مشاعرهم حيال تصرفاتها التي تحولت من بكاء وضعف لقوة وقسوة، وعلى تلك الوتيرة أصبحت حياتهم تماثلت الأم دور الأب القاسي الشديد ودور الأم الذي اعتادوه من قبل امرأة تعمل لتأتي بكل طلباتهم مُتناسية تمامًا احتوائهم والحديث معهم، فابتعدوا وابتعدت ومع أول فرصة للزواج أسرعوا لتكوين

عائلة وابتعدوا عنها هكذا اعتقدت ومن ثم صدقت، كبروا وابتعدت ابنتها لمحافظة أخرى فأوصتها بالابتعاد عن حماتها فامتثلت الابنة لها لكن الآن ألقت بكلماتها عرض الحائط واندمجت مع حماتها من جديد وهي التي قاطعتها زوجة ابنها الأكبر ثم مع الأيام قاطعها هو الآخر، بالأمس قسى حازم عليها كل القسوة واتهمها بالكثير فشعرت بالخسارة العظيمة وقد خسرتهم جميعًا بعد كل تضحية السنين.

تركته على الباب بوجه محزون وقلب تهلل قليلًا بعودته ودخلت تجلس على كنبتها البسيطة التي تربوا فوقها، دخل وجلس جانبها أمسك بيدها قبّلها وقال:

– ليس معنى المعاتبة القطيعة، نحن لا نُعاتب إلا من نُحب، فضلك عليّ كبير ما كان لي أن أنساه يومًا.

بكت ولم تستطع تماسك نفسها، قالت:

– فلمّ ما كان منك بالأمس؟ تفعل كأخيك تمامًا، بعدما ربيتكم راحت ثمرة تربيتي لغيري!.

تنهد قائلًا:

– لا تُحسب الأمور هكذا يا أمي، لكن سُنة الحياة أن يشب الابن وتشب الابنة فتذهب لتكوين أسرة، كما ذهبت أنا لتكوين أسرة أتت زوجتي من عند أهلها لتكوين أسرة.

لوت شفتيها لما ذكر زوجته، فقرر أن يأتي بالموضوع من بدايته قال:

- لم تكرهين عزيزة؟

- لأنها منذ اللقاء الأول بيننا لم تُرحب بي خير ترحيب.

- كانت قليلة خبرة في الحياة، تتعامل بفطرة لو أخطأت عاتبيها كابنتك كما تُعاتبيني الآن، لكنكِ يا أمي كررت ماحدث مع زوجة أخي وحكمت على كرهك لها منذ اللقاء الأول ومضيتِ توصيه بالقسوة والجفاء معها حتى كاد الطلاق يقع وخسرتيه لما اكتشف أنكِ من تسببتِ بذلك، ولم تعترفي يومًا أنكِ المتسببة في ردة فعله بل أقنعتِ الجميع أنه ابن عاق وجاحد، وبدأت بنفس المنهاج معي من جديد وها أنا أخسر تلك الطيبة الهادئة التي ظلمتها، وعلى عكس مافعلتيه معي وأخي فعلتي مع غادة ولو استمرت لخربت حياتها فلا زوج سيكون سعيد مع غضب أمه وحزنها وظلمه لها وهي الطيبة، ألم تكرهي والدي لقسوته وجحوده وذهابه عنا! لمّ تزرعين فينا الآن نفس الشيء ويعيش أولادنا كما عشنا.

سكتت، ابتلعت ريقها، رمى بالحقيقة كلها وبالماضي كله في حجرها، فكرت ذهبت بالذكرى لماضي تُحاول نسيانه، ثم مضت نحو الحاضر وما صار في بيوت أولادها بسببها، بكت، شهقت باكية، احتضنها وأوجعه قلبه، لكن سرعان ما عادت للخلف ومسحت دموعها مُكررة المشهد الذي رآه صغيرًا عند باب بيتهم ممسكة بورقة طلاقها، قاومت ضعفها وتماثلت قوتها، قالت:

- هل هو مُبرر لابتعادكم؟ كنت أحافظ عليكم، أخاف هجركم، أخاف رحيلكم بين غمضة عين وأخرى، أردت أن أكون وحدي في قلوبكم، هل هو ذنب أن يقدس الابن أمه التي ربته وحدها؟

عرف أنها تُحاول التأثير من جديد، لكن لو تراجع لرجعت لكل الماضي، استمر بثبات:

– هل تكرهين أن ننعم بحياة هادئة؟ لمّ تُريدين أن يكون هدوئنا وسعادتنا هنا فقط؟ أليس من حقنا السعادة والهناء مع عائلتنا؟، سُنة الحياة يا أمي أن يكبر الجميع ويتزوج ويُكون أسرة الجميع يترك بيت أهله ليكون أسرة لكنه لا يبتعد ولا ينسى الحقوق أبدًا، للأهل الاحترام والود والوصل وعدم نسيان الماضي نحن نسير بفضل دعائكم.

قالت:

– وأنا! أظل وحيدة في هذا البيت! أحادث الحائط والذكريات المؤلمة.

قال يربت على يدها:

– لو غمرنا الود جميعًا لاجتمع كل واحد منا هنا وما صار هناك وحدة ولا بُعد كلما هنأت أرواحنا هنأ الجميع، كلما عمّ الود بقلوبنا شعرتِ به، ألا تسعد الأم بسعادة أولادها؟ ألا تهنأ الأم بهناء أولادها وسعادتهم مع زوجاتهم وأولادهم.

سكتت لم ترد لمستها الكلمات شعرت بالتقصير نحوهم، قال:

– حُرمنا صغارًا من والد ذهب دون عودة ولا أريد أن يلقى ابني نفس مأساتي.

قالت:

– فاقد الشيء لا يُعطيه.

قال بثقة:

– لكن مفتقد الشيء يُعطيه وبشدة، أريد تعويض ابني بما افتقدته قديمًا علّ قلبي يطيب بسعادته وأعي تمامًا أن الشعور نفسه يجول بخاطرك، فسعادة الأولاد من سعادة الآباء.

قالت:

– من جديد تُعاتب بكلمات قاسية.

قال:

– أصارحك لنصلح ما مضى، لا أريد أن تمضي الحياة وفي قلوبنا عتاب وذكريات في قلوبنا كالغصة، أردت صفحة جديدة مع الجميع بقلبٍ جديد وشخصية مُتفهمة تحب وتود وتصل الجميع، لن أهنأ في حياتي دون رضاكي وأعرف أنكِ لن تسعدي بعيدًا عنا.

سكتت واقتنعت احتضنها فربتت على ظهره، قال:

– معي ضيف.

قالت:

– ضيف! لم يدخل بيتي يومًا ضيف ولم يسأل عن حالي أحد.

قال مُتجهًا نحو الباب:

– ليس بأحد، إنه قُرة عينك الأولى التي شعرت معه للمرة الأولى بالأمومة.

كان يُمهد لتحن وتطيب سريعًا، بكت وقد رأت ابنها بعد انقطاع طويل

عن اللقاء ولم يكن بينهما خلال القطيعة سوى مكالمات بعيدة تنم عن علاقة سطحية، اقترب هو يُقبل يدها قائلًا:

– والله لا تطيب لي الحياة أبدًا بعيدًا عن رضاكي.

قالت:

– ولم أنم ليلة واحدة سعيدة ببعدك.

ثم ضمت كبيرها وصغيرها قائلة:

– آسفة لما اعتقدته صحيحًا فكان نقمة عليّ ببعدكم ونقمة عليكم بالخراب.

قال الأخ الأكبر:

– ماكانت تلك الفترة إلا لمراجعة أنفسنا يُراجع الابن نفسه وتراجعين نفسك يا أمي لا أحد معصوم من الخطأ، وعرفت في بعدك أن الحياة ليست كاملة السعادة رغم كل مافيها.

قالت:

– ما كانت لتكتمل فرحتي إلا بالتفافكم حولي.

قال مُداعبًا:

– الأحفاد يشتاقون جدتهم الحنون.

ثم قال:

– ليكون اليوم اجتماع الأهل ونلتف جميعًا حول مائدة لذيذة في بيتي.

قالت بمكر مُداعبة:

– تقصد أن طعام زوجتك ألذ من طعامي!

ضحك قائلًا:

– لن تتغيري يا أمي لكن على قلوبنا مثل الشهد.

قالت لما استحسنت مُغازلته:

– سأذهب من الآن لمساعدتها دون أن أفرض عليها شيء.

ذهبوا جميعًا لبيت الأخ وقد كانوا قُبيل الظهر انضمت هي لزوجة ابنها التي تعاملت معها بمنتهى اللطف وكأن شيئًا لم يكن وراحت تقترح عليها وتأخذ بكلماتها بمنتهى التفهم والود، فهنأت المرأة وسعدت وتمنت لو كان ذلك منذ البداية بدل كل أوقات القطيعة والحزن، فلا تحتاج الحياة سوى لتفهم فقط دون الظن السيء في كل شيء، فلو قدم الإنسان حسن الظن لأخيه الإنسان في كل شيء لما امتلأت النفوس بالحقد والحزن والقطيعة، قالت بعد الغداء وزوجة ابنها تُجاورها:

– متى ستذهب لعزيزة؟

قال حازم متوترًا:

– في انتظار مكالمة من والدها .

قالت:

– سنذهب معك جميعا.

تهلل الجميع فرحة بهذا التغير الذي طرأ على الأم التي حين شعرت بفقد الجميع وتناثرهم من حولها بسبب أفعالها فاقت من غفلتها وأنقذت مايمكن

إنقاذه من علاقتها مع أولادها وتكوين أسرة دافئة هادئة تنتقل بينهم في ود وحب بدلًا من القطيعة، كما شعر كل واحد منهم بألفة كبيرة تجاه هذا الجو الأسري الرائع الذي يروي ظمأ النفوس ويجعلها في راحة بجانب من تحب.

العلاقات الأسرية الودودة تبعث في النفس أُلفة ومحبة تجعلها آمنة مطمئنة كما أن الكلمة الطيبة سحر.

♡ ♡ ♡

طوال يومها وهي تُفكر لا تكف عن التفكير في كل شيء متوترة هي لا تعرف من أين تبدأ الحديث معه وكيف تتماسك دون أن تغضب فتفسد جلسة الود، لكن والدها أخبرها أنه تغير ويريد الصلح ويريد حياة أفضل، لذا يجب أن تُناقشه فيما تُحب ليسيرا عليه طوال الحياة فلا يدخل بيتهم خرابًا أبدًا، مع آذان المغرب دخلت أمها غرفتها وكانت عزيزة تقرأ القرآن قالت:

- طالما تتقربين إلى الله بالطاعة فلن يخذلك يا عزيزة.

قالت عزيزة وقد أغلقت مصحفها:

- لن أبتعد أبدًا بإذن الله.

قالت الأم:

- قصرتِ سابقًا أليس كذلك؟

- نعم ابتعدت كثيرًا وشغلني الحزن والوهن عن الاقتراب.

- أصابك الحزن والوهن لأنكِ ابتعدتِ والآن عرفتِ سر القرب وما له من هناء وفرحة على القلوب فلا تبتعدي أبدًا.

ثم أردفت لما وجدت ابنتها تُصغي إليها بهدوء قلب يتبع قراءة القرآن:

– حتى حين تحدث الخلافات في بيتك عالجيها بالدعاء بالقرب من الله بدلًا من الحزن والغضب وتفاقم الأمور، ما الخلافات إلا إنذار لنا بمراجعة أنفسنا وردود أفعالنا يتبعها عتاب هادئ يزيد الحب والود.

قالت عزيزة:

– مُحقة أنتِ يا أمي.

قالت أمها:

– من المهم أن تصلي الود مع الجميع ليس زوجك فحسب لأم زوجك حق الوصل والبر ولأهلك حق الوصل والود، لن تخلو حياتك من جو العائلة طالما حافظتِ دائمًا على الزيارات هنا وهناك.

قالت عزيزة:

– لكن أمه تُؤذيني بتحكماتها.

– لو عاملتها كأم وأخذتِ كل تصرفاتها على أنها من أمك لهان الأمر، ألا أنصحك أحيانًا ألا أُعاتبك ألا أغضب منكِ! كما تتحملين مني تحملي منها المرأة زوجت جميع أولادها ولا تريد أن تشعر أنها أصبحت وحيدة لا فائدة منها تُريد أن تُصبح مرغوبة ومحبوبة فأشعريها بذلك مرة بعد مرة ستهدأ.

يبدو أن عزيزة أصبحت أهدأ بعدما فهمت الكثير من الأمور، بعدما عاتبت نفسها أولا وراجعت تصرفاتها وردود أفعالها منذ كانت صغيرة، عرفت وفهمت أن العتاب مهم وأن التراكمات خطر، فهمت أن للحياة

الزوجية قدسية وعليها المحاولة مرة وثانية وثالثة لأجل حياة أكثر استقرارًا، فهمت أنها المرأة والتي يجب أن تكون أكثر اتزانا لأن دورها يفوق أي دور فهي الزوجة والأم وربة البيت وسبب كل شجرة مثمرة، لذا فقد قررت في اليوم الثاني أن يكون اللقاء المنتظر مع زوجها لشدة ماشتاقت للعودة لمملكتها وهي تنوي أن تسقيها حبًا وودًا كي تنمو وتصبح حياة مليئة بالخير والبركة.

لم تتركها أمها وقد رأت منها تقبلًا لنصائحها فقبيل زيارة زوج ابنتها دخلت تُملي عليها نصائح الهدوء والتريث في القول والفعل فاستجابت ووعدت بأن تفعل، ثم قامت عن مكانها وحملت الصغير وطلبت من عزيزة التجهز بأجمل صورة لاقتراب قدوم زوجها، ثم خرجت بالطفل بعدما تجهز هو الآخر لاستقبال حياة جديدة ماكانت لتكون إلا بالبعد والعتاب ومراجعة النفس ومصارحة الأنفس بما لها وما عليها.

دقّ الباب فكانت المفاجأة بقدوم العائلة بأكملها لمراضاة عزيزة، سعد الأب أن لابنته معزة في قلوبهم وسعدت الأم بزيارتهم وقد التأم الود بينهم دالًا على دوام الود مع ابنتها أيضًا، دخلت عزيزة كعروس خجول تُمسك بالعصير تُقدمه للجميع وترحب بهم وحازم يُطالعها بحب وشوق بعدما غابت عنه لأيام كانت قادرة على أن يتغير فيهم الكثير والكثير جدًا، ودت لو تعرف ماذا حدث كي ترى هذا المشهد المحبب للنفس ، انسحبت نحو البلكونة فتبعها حازم، جلست فجلس، قال:

- كيف حالك؟

قالت دون أن ترفع عينها:

– بخير.

ضحك مُداعبًا:

– ليست جلسة تعارف لخطبة إنها جلسة عتاب.

ابتسمت تكتم ضحكتها، قال:

– غابت عنا بعض الأمور فتسببت فيما كان.

قالت تتذكر الماضي:

– تماديت في القسوة.

قال:

تماديتِ في التجاهل وربما كان كتمان أدى لكثرة التراكمات.

قالت:

– كنت أظن بابتعادي أن تفهم حزني.

– مافهمته إلا تجاهل، كان عليكِ مُصارحتي وعتابي، تماديت أنا في الجفاء وربما في العناد وتماديتِ في الإحساس بالظلم مع كل ردة فعل ومن ثم تماديتِ في الكتمان فتراكمت في صدرك الذكريات السيئة فابتعدتِ ولم أكن أفهم ذلك فاعتقدت أنه تجاهل وعناد فابتعدت وزدت تأديبًا لكِ لتعودي لصوابك.

سكتت، قال:

– كنتُ مُخطئ.

رفعت عينها ولا تُصدق أنه يعترف بخطأ، أردف:

- وكنتِ مُخطئة.

قالت في هدوء:

- كلانا أخطأ.

- خطؤنا الأكبر هو أننا راكمنا الأحداث والأفعال وردود الأفعال دون أن نبوح ونتحدث ونتعاتب.

قالت بحزن:

- كنت أخاف عتابك لأنك تتعامل طوال وقتك بجدية.

شعر بصدقها فقد تمادى في هذه أيضًا، أردفت:

- لم تأخذ برأيي يومًا وكنت تفرض كل شيء فشعرت أني مُهملة لا شأن لي بشيء.

شعر بهذه أيضًا وكان يظن أنه هكذا يُمسك بزمام الأمور وحده، قال:

- آسف عما كان يا عزيزتي.

ضحكت فقال:

- أقصد يا عزيزة.

ثم أردف لما وجد ابتسامتها وقد غازلها بكلمة طيبة بسيطة:

- لن تكون حياتنا المُقبلة سوى مُشاركة، نتعاتب بهدوء إن حدث خلاف.

ثم زاد وهو ينظر تجاه الأسرة الكبيرة التي تجلس بمنتهى الود في الصالة:

- سنضفي عليها أيضًا الكثير من الخصوصية التي رُبما لم تكن موجودة في السابق.

قالت في راحة نفس:

– أعتذر إن تسببت في كل ماتراكم في قلبك تجاهي دون أن أنتبه.

قال:

– ليكن هدفنا في الحياة أن نتشارك الحب والود والاهتمام والعتاب واللين والرأفة ليصب كل هذا في جوف طفلنا الذي سيكبر بيننا ويشعر بما نشعره يا عزيزة.

قالت:

– بإذن الله لن يكون بيننا إلا كل جار للود.

تعجب فأردفت:

– جار الود يعني الحب والاهتمام والتقدير واللين وكل الصفات التي تُجاور الود في المعنى والمفترض أن تكون في الحياة مع الجميع.

ضحك وأعجبه كثيرًا المعنى ثم قال:

– سنعود اليوم بإذن الله لبيتنا فهو بانتظارك.

قالت:

– حقيبتي جاهزة.

ابتسم بشوق كبير لها بعدما جهز البيت وعطره لها ليستقبلها من جديد كعروس تحمل طفله الجميل في غرفة واحدة تجمعهما دائمًا يتشاركان فيها حتى تحمُل الطفل الصغير، لن يتركها وحدها تتحمل مسؤولية الصغير سيتحمل معها وسيتعلم كل ما يخصه ليعوض نفسه ويعوضه عما افتقده صغيرًا، قال وهما يتوجهان نحو العائلة:

– في الغد سنزور جارنا وزوجته فلم نرّ منه إلا كل خير.

سعدت أنه تفهم وأصبح مرن في التعامل مع الجميع وعرفت أنه راجع نفسه في كل شيء حتى في علاقته الجافة مع جاره الطيب.

وأخيرًا جلس الجميع يُلاعب الصغير الذي أطلق ابتسامته الأولى لفرط سعادته بما يدور حوله، سيكبر وسط عائلة تفيض بالحب والود الذي ما كان ليحدث إلا بعد خلاف يجعل الأنفس تُراجع نفسها ليعم فيها كل الخير.

تمت بحمد الله.

إلى اللقاء مع حكايات قادمة من جار الود.

القصص من المجموعة القصصية

للكاتبة بعنوان (لا يعجبني خطيبك)